صحيفة شهرية تعنى بالتاريخ السوري والعربي وتستعيد ذاكرة الصحافة العابرة للأجيال

* 32 صفحة *

العربي القديم

شعارها
عدو جدك ما يودك

* Issue 4 October 2023 *

* العدد الرابع - تشرين الأول/ أكتوبر 2023 *

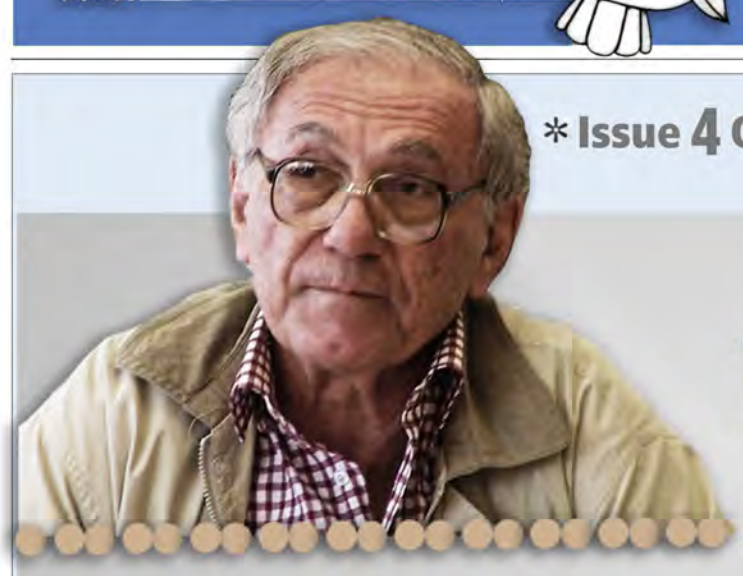

صادق جلال العظم يقرأ في كتابين عن الدروز

فواز حداد يكتب عن سهام ترجمان

المذكرات
مأمون البني يخص العربي القديم بفصل من مذكراته

القضية
دريد ونهاد: ثنائي متكامل أم ظالم ومظلوم؟

الملف:
نهاد قلعي ويوسف حنا
ثلاثون عاما من الغياب

لعبة الأيام

أرواد بين الأمس واليوم

د. أحمد عسيلي

بكثير من النوستالجيا، قرأت هذا الاستطلاع الذي تعيد (العربي القديم) نشره، بعد ثمانين عاماً من نشره في المصدر. هي المرة الأولى الذي أطّلع عليه، وأعتقد أن الكاتب كان موضوعياً جداً، في وصف أهلي، قبل حوالي القرن من الزمن، حيادياً جداً بكل المعاني الإيجابية، وأيضاً السلبية لتلك الحيادية.

أهالي أرواد حرفيون ماهرون؟

نعم، مازالوا حرفيين ماهرين إلى الآن، مازالوا يصنعون قواربهم بأيديهم، لكن حرفيتهم جعلتهم يدركون أن صناعة المراكب الصغيرة، والصيد مهنة طواها الزمن، ولأنهم ماهرون حدّ المكر ربما، فقد حافظوا على تلك المهمة كتراث فلكلوري، لكنهم اتجهوا إلى التجارة البحرية، وأبدعوا فيها أي إبداع.

هم عشوائيون في حياتهم الخاصة؟

نستطيع قول ذلك، إذا كنا فعلاً حياديين، لكن بمقدورنا أيضاً أن نقول عنهم إنهم عفويون، بسيطون، أنشؤوا سداً عريضاً، بينهم وبين التكبر والتكلّف، لدرجة يمكن أن ترى معها، كبار رجال الأعمال يجلسون على الأرض يدخنون الأركيلة، أو يستلقون بعد الظهر، لأخذ قيلولة أمام باب البيت، بلباس النوم، هكذا بكل بساطة!

محافظون؟

نعم محافظون جداً على عاداتهم حدّ التقديس. فعاداتنا هي هويتنا، هي ذاتنا التي نحبّ أن نحافظ عليها، وندرك تماماً أننا بدون تلك المحافظة على التقاليد، سنذوب نحن الذين لا يتجاوز عددنا الثلاثين ألفاً ربما، في محيط بشري كبير في الساحل السوري، لذلك لنا رقصتنا، لنا اللباس الخاص لنسائنا، لنا تقليدنا في الاحتفال بالإسراء والمعراج، لكنْ أيضاً لنا الانفتاح على الآخر، وتقبّله بكّل حب.

التحق الكثير منهم بقوات فرنسا الحرة؟

ربما، رغم أن ما أعرفه عن أهل الجزيرة بشكل عام، هو كرههم للسلاح، ومقتهم له، وعدم إجادتهم استخدامه، وكره العسكرة، وفكرة الجيوش أصلاً، فهي لا تتناسب مع نفسيتهم المنطلقة دوماً، والمُحِبّة للسلام، وقد أخبرني يوماً أحد الأروادِيين، وبكل فخر، إن أرواد لم تشهد في تاريخها كلّه إطلاق نار أبداً، ولا أذكر أبداً في حياتي كلها في أرواد، أن رأيت سلاحاً، سوى مع بعض أفراد الشرطة القادمين من مكان آخر، ولا أتخيل أبداً رؤية أروادي مع سلاح، ولم أسمع أبداً عن حكايا أشخاص شاركوا في معارك، إلا قصة واحدة، كانت لها ظروفها الخاصة.

فالمادة حقيقية، لكنها تمثل حقيقة عين خارجية وصفية، ترى الأشياء في ظاهرها، بعيداً عن حميمية العلاقة الذاتية، والفهم العميق، لتلك البقعة الصغيرة من الساحل.

أغرب طاحونة قمح

الشغف بالقوارب على جدران الجزيرة

جزيرة تضج بالحياة

استطلاع مصوّر عنها قبل 80 عاماً:

أرواد
جزيرة لا يهددها إلا الماء

مما يدعو إلى الأسف حقا، أن العناية والمهارة التي اشتهر بها رجال جزيرة أرواد في تنظيم أعمالهم وحرفهم، لا تسري أيضا على شؤونهم الخاصة، ولا على شؤون الحياة في جزيرتهم.

على بعد ميلين من الساحل السوري، وفي الطريق الممتدة بحرا شمالي طرابلس، تقع جزيرة تتراءى بيوتها البيضاء الناصعة، كما لو كانت تبرز من غمرة مياه البحر الأبيض المتوسط الزرقاء. وفي الجهة الشمالية من هذه الجزيرة، يمتد صف طويل من الزوارق والمراكب ذات الشراع الواحد والشارعين، تداعب نسمات البحر قلاعها فتجعلها تهفو وترفرف في الفضاء.

تلك هي جزيرة أرواد، أشهر مرافئ الزوارق والقوارب في شرق البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت يوماً مقر مملكة فينيقية، فاقتصرت اليوم على أن تكون وحدة سياسية صغيرة لا يمثلها أي عضو في البرلمان، لصغر مساحتها التي لا تتجاوز 900 متر طولا و500 متر عرضا.

وقد لعبت هذه الجزيرة دورا كبيرا في التاريخ، وذكرت في سفري يونس وحزقيال من أسفار الإنجيل؛ إذ ورد أن مملكة أرواد كانت مقراً للبحارة والجنود الذين دافعوا عن صور ضد نبوخذ نصر، كما أنجبت أرواد أولئك المحاربين الذين اشتركوا مع الفرس في محاربة الإغريق في موقعة (سلاميس) البحرية التاريخية، فضلا عن أنهم كشعب من أوائل الشعوب التي اعتادت أن تجوب مياه شرقي البحر الأبيض المتوسط وترتادها. ساهموا في الحروب التي قامت على مر القرون، وعانت البلاد الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط مراراتها وويلاتها.

وقد خلف الفينيقيون وراءهم جداراً ضخماً مهدماً، تداعت أجزاؤه وكستها الأعشاب والطحالب، وهذا الجدار هو الطلل الباقي من سور كان يحوط الجزيرة كلها يوماً، فلم يبق منه سوى هذه الآثار، لتشهد بعظمة فن العمارة القديم، كذلك استولى الصليبيون على جزيرة أرواد، خلال الحرب الصليبية، فخلفوا بها قلعة متينة البنيان، وسلالة نتجت من اختلاطهم بأهالي الجزيرة وتزاوجهم معهم.

وفي الحرب العالمية الماضية، استولى الفرنسيون على جزيرة أرواد سنة 1914، فاتخذوها قاعدة لعلمياتهم الحربية ضد الأتراك والسوريين، ولما كانت السلطة التي تسيطر على الجزيرة، تستطيع أن تفرض نفوذها على حركة السفن والمراكب على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط، فقد استطاع الفرنسيون أن ينزلوا رجالهم بالساحل حيث شاؤوا، وأن يمدوا المارونيين في جبل لبنان بالأطعمة والأغذية.

وهاهم أولاء رجال جزيرة أرواد يلعبون مرة أخرى دورا هاماً، إذ استخدموا قواربهم وسفنهم في نقل الإمدادات العسكرية في الشرق الأوسط في الحرب الحاضرة، فأصبحت هذه المراكب تنتقل على طول الساحل في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، ما بين الإسكندرية – الميناء المصرية – ومرسين – الميناء التركية – متعرضة لما يهدد سفن الحلفاء التجارية من أخطار، في سبيل نقل المواد الضرورية للمجهود الحربي.

وأهم ما تضطلع به من أعباء هو نقل الخشب من تركيا، والإسفلت من إنطاكية إلى بيروت، وإلى مصانع الإسمنت القائمة في الشقة على ساحل لبنان، وقد ذاقت هذه المراكب مرارة الحرب فعلا، حيث اشتدت شوكة غواصات الأعداء في شرق البحر الأبيض المتوسط من حوالي السنة، إذ أغرقت مدافع العدو عدداً من مراكبهم، ولكن قوة العدو ما لبثت أن اضمحلت وزال الخطر.

ولا يقتصر حال جزيرة أوراد على إتقان الملاحة فحسب، بل إنهم يصنعون سفنهم بأيديهم أيضا، وقد شاهد مراسل مجلة (أخبار الحرب) ومصورها حين زارا الجزيرة، بنّائي القوارب، وهم ينكبون على ممارسة حرفتهم القديمة. وكانت أحواض المرفأ الصغير، تحتضن إذ ذاك، أكثر من عشرة مراكب جميلة، بينما كان الأطفال من حولها يلعبون في الماء، كما لو كانوا أسماكاً برونزية اللون...

وكانت الهياكل الخشبية للمراكب الشراعية التي لم يتم صنعها، تبدو خلف البيوت الحجرية الصغيرة المتزاحمة، شامخة بأنوفها وقد شاعت في الجو رائحة الأخشاب التي كان البناؤون ينشرونها ويقطعونها من جذوع الأشجار، التي اجتثت من غابات لبنان ومنطقة العلويين.

ومن أهم الفنون وأكثرها اتساقا ولزوما مع بناء السفن، هو فن حفر الأخشاب وطلائها وزخرفتها بالألوان البراقة، التي تشاهد حول مؤخرة المركب ومقدمتها. أما أولئك الذين لا يعملون في بناء السفن من أهل الجزيرة، ولا يشتغلون في شحن وتفريغ المراكب ولا يحترفون الملاحة، فيعملون في صيد السمك والغوص في البحر لاستخراج الإسفنج.

وبعد أن احتسى مندوبنا ومصورنا القهوة في ظل هيكل مركب لم يتم صنعه، انطلقا يشاهدان معالم الجزيرة، فإذا بها مكتظة بالمنازل الصغيرة المشيدة من الطوب، والتي تفصل بعضها عن بعض طرق صغيرة ضيقة، تتخللها سوق أقيمت فوق طريقها سقف تحجب الشمس عنها. ولا ترى في الجزيرة أرضا مزورعة، اللهم إلا مساحات ضئيلة متربة في ساحات بعض المنازل، نبتت فيها بعض الخضراوات.

وتستخرج المياة من الآبار، كما كانت المياه تستمد قديماً، من آبار تتصل بالبحر، وقد حدث أن حوصرت الجزيرة مرة، فاضطرت للتسليم لأن العدو احتل الآبار وأقام عليها أغطية من حديد.

ويطحن القمح الذي يجلب إلى الجزيرة في طواحين تعد من أجمل مناظر الجزيرة. على أنها رغم غرابة منظرها خير آلات للطحن في مجتمع قوامه ملاحون وبحارة؛ فإن أذرعه من الطواحين تكتسي بقماش من قلاع المراكب بدلا من الخشب الذي يستعمل عادة، كما أنها تقام على رحى ضخمة يمكن إدارتها بذراع طويلة من الخشب كدفة المركب.

ويبلغ عدد سكان الجزيرة الآن، ألفين وثلاثمائة نسمة، كلهم من المسلمين فيما عدا أسرة مسيحية تعيش بينهم، ومع أن رجال الجزيرة من الرواد، ومن جوّابي البحار الذين رحلوا إلى كثير من البلاد الأجنبية، إلا أنهم لم يقتبسوا عن تلك البلاد سوى النزر القليل من العادات، فقد اشتهر أهل الجزيرة بأنهم من أشد المتمسكين بالقديم من العادات والتقاليد، فهم مثلا يراعون حجاب المرأة مراعاة شديدة.

وليس ثمة مواصلات بين الجزيرة والشاطئ سوى الزوارق الصغيرة ذات المجاذيف، وقد تشتد العواصف في الشتاء، فتقطع هذه المواصلات فترات قد تكون أياما طويلة في بعض الأحايين، وفي هذه الحالة يقتصر الاتصال مع الشاطئ على الإشارات، التي ترسل خلال الجهاز اللاسلكي الذي زودت به الحامية الفرنسية.

وتضم هذه الحامية الفرنسية نسبة كبيرة من رجال جزيرة أرواد، فقد التحق كثير منهم بقوات فرنسا الحرة البحرية، وزار المراسل والمصور عيادة طبية تقوم في قلب الجزيرة على مقربة من القلعة، ويديرها طبيب وممرضة فرنسية يتبعان للجيش ومساعد لبناني. وقد ذكرت لهما هذه الممرضة أن أكثر الأمراض انتشارا في الجزيرة، هي الملاريا والرمد والأوبئة الجلدية.

وتعزى هذه الأمراض الجلدية إلى القذارة، ومما يدعو إلى الأسف حقا، أن العناية والمهارة التي اشتهر بها رجال جزيرة أرواد في تنظيم أعمالهم وحرفهم، لا تسري أيضا على شؤونهم الخاصة، ولا على شؤون الحياة في جزيرتهم.

وعندما آن لنا أن نغادر الجزيرة ونبحر عائدين إلى الشاطئ، كانت الشمس تنحدر إلى خدرها وتسحب ذيول ردائها الذي انعكست أرجوانيته على المراكب، وسادت روح من السكينة والهدوء والسلام، الذي يساعد أهل الجزيرة على قدر طاقتهم على توفيره للعالم كله.

مجلة (أخبار الحرب) 1943/10/20

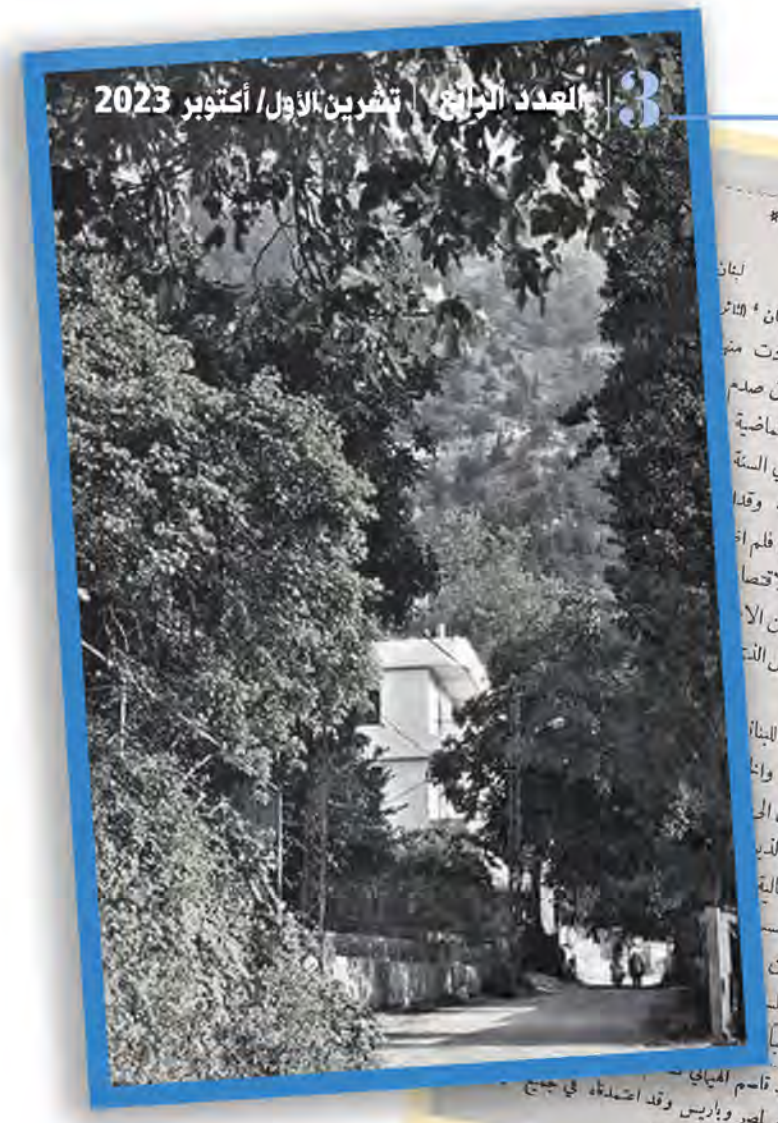

مذكرات صاحب الفيحاء

مذكرات صاحب الفيحاء *

١

- الاصطياف والمصطافون ، مصيف سير الجديد ، التعصب الذميم في لبنان ، الناشر

كانت لي في الآونة الأخيرة جولة في مصايف لبنان اردت منها ترويح
كنت اريد ان اكتب كلمة عن الاصطياف في لبنان لولا ان صدم
البعيد بين عدد المصطافين هذه السنة وعددهم في السنة الماضية
عدد المصطافين هذه السنة لا يكاد يبلغ نصف عددهم في السنة
عدد المصطافين من المصريين هذه السنة قليل جداً . وقد
الاقبال من بعض اللبنانيين فلم اجد
بعضهم يعلل الحالة الاقتصادية وليست الأزمة الاقتصادية
عام مضى ، وكان آخرون يعللون انصراف المصريين عن الا
المصريين بشؤونهم السياسية الحاضرة ، وما هذا بالتعليل الذي
المصايف في اوروبا والاستانة مملوءة بالمصريين .
واظن انني لا اقول شيئاً جديداً اذا قلت ان اللبنا
التسامح الديني والنزول عن كثير من تلك العنعنات والخ
البائدة ، ليستطيعوا ان يكونوا حقيقيين بشد الرحال الى
قبل تلك الطبقة الراقية من المصريين المسلمين الذين
بلاد يجب ان تكون اوساطها الاجتماعية طاهرة خالية
وليس هذا هو شعور المسلمين المصريين فحسب ، بل هو شعور
انفسهم الذين يعيشون مع المسيحيين اللبنانيين تحت سماء
الاصطياف بالصحة والهواء العليل والماء السلسبيل ، وإنما يريد
صفاء واخلاصاً وان يطالع في وجوههم حباً ورضواناً . أما وهو لا
يظفر بشيء من هذا ، ولا يظفر إلا بالقليل مما أفلت من سلطة
الأكليروس والتقاليد الوراثية العتيقة ، فأجدر به أن ينفر من
الاصطياف بلبنان وأن يطير حيث يتاح له رقة الهواء ، وصفاء
العيون والسماء !
وفي وسعي أن أقدم دليلا على قولي هذا . هذه القرية الصغيرة
التي فتحت للاصطياف حديثاً ، وهي قرية (سير) (1) قرب طرابلس ؛ فقد
قصدت هذه القرية لزيارة صديق لي فيها ، فوجدتها تعج
بالمصطافين من أهل طرابلس ، وقد اجتمعت إلى بعضهم
فوجدتهم راضين كل الرضاء عن مصيفهم لجماله الطبيعي أولا ، ثم
لسكون أهله إليهم ، وخلوص سمائهم من روح التعصب التي كانوا
يستروحونها في قرى لبنان الشمالي . وقد حدثني بعضهم عما
كانوا يجدونه من أثر هذا الروح الذميم يوم كانوا يصطافون في
هذه القرى ، قبل فتح طريق (سير) ، ما دهشت منه عجباً .
وعلى ذكر طريق (سير) أريد أن أذكر للقارئ الكريم أن هذه
الطريق هي أثر من آثار الثورة السورية ، فلولا قدوم الثائر
الشهير سعيد بك العاص إلى (سير) لما أنشئت هذه الطريق ،
ولما أتيح لهذه القرية الجميلة أن تفتح صدرها الأخضر
للمصطافين ، وفي هذا فضل للثورة السورية أو لسعيد بك العاص
على قرية (سير) وجرود الضنية . وفي هذا دليل أيضاً على إهمال
الحكومة اللبنانية لقرى الاصطياف الإسلامية ، أو على ذلك الروح
الذميم الذي نحن في صدده . فما كان أحرى بالحكومة اللبنانية بأن
تعنى بتعبيد هذه الطريق إلى مصيف (سير) الجميل قبل الثورة ،
لولا أن شبح التعصب ماثل في القصر الكبير ! وهناك في جرود
(عكّار) مصايف جميلة جداً ، كان حظها كحظ (سير) من الحكومة
اللبنانية ، فبقيت مقفلة في وجوه المصطافين ولم يتح لها سعيد
عاص آخر يشب فيها الثورة ويفتح الطريق ؟
نعم إنك لا تجد اليوم في هذه القرية المفتوحة حديثاً للاصطياف
ما تجده في غيرها من قرى لبنان من وسائل التمتع والإتقان ، ولكن
الطرابلسيين راضون عن مصيفهم الجديد لما ذكرناه لك آنفاً ،
ولأن (سير) فضلا عن ذلك تمتاز بمناظرها الطبيعية الفتانة
ومائها الدافق المثلج ، وبوفرة أثمارها وخضرتها .
وعلى ذكر الإتقان ووسائل التمتع ، أعود إلى ذكر مصيف زحلة
وبلعبك وصوفر وغيرها ، فقد شهدت في فندق (باليرا)
و(عربيد) و(خوام) و(كونتيننتال) في بعلبك ، وكذلك في نُزل
(قادري) و(الصحة) و(الطرابلسي) في زحلة ، من أسباب الإتقان
والاستعداد ما أعجبتُ به كيثرا وخاصة في فندق (عربيد)
الحديث بشكل معداته الأوروبية ، ولو أن امثال هذه الفنادق
المتقنة كانت محاطة بذلك الجو الصافي المشبع بروح التسامح
والحب الذي نرجوه للبنان ، لكان لبنان اليوم أعظم مصيف في
العالم ،
ونحن نكتب هذه الكلمة بروح الإخلاص والنزاهة ونرجو من أخوتنا
أن يتلقوها بمثل هذه الروح ، وألا يفهموا منا غير الحقيقة
المجردة ، وغير خدمة لبنان نفسه ، مادام الاصطياف هو المورد
الوحيد للبنان !

(*) بمناسبة سفر زميلنا وصديقنا السيد قاسم الهباني
المتحدة سيتجف العرفان بمشاهداته في طريقه لمصر وباريس وقد اعتمدناه في جميع
في كافة الأقطار التي يحل بها فنرجو له سفرا سعيدا وعودا حميدا

شكوى عمرها قرابة المئة عام:

التعصب الذميم في لبنان

بقلم: قاسم الهيماني
صاحب جريدة (الفيحاء) الغراء

في عام نشرت 1928 نشرت مجلة (العرفان) اللبنانية، جانباً من مذكرات صاحب جريدة (الفيحاء) قاسم الهيماني فكانت الشكوى من العنصرية والتعصب، وغياب روح التسامح هي المكشلة الأبرز التي لفتت انتباهه في تعامل اللبنانيين مع المصطافين العرب، الآتين من مصر أو الشام! (العربي القديم)

كان لي في الآونة الأخيرة جولة في مصايف لبنان أردت منها ترويح النفس، وما كنت أريد أن أكتب كلمة عن الاصطياف في لبنان لولا أن صدم نظري ذلك الفرق البعيد بين عدد المصطافين هذه السنة وعددهم السنة الماضية. ويقولون في لبنان أن عدد المصطافين هذه السنة لا يكاد يبلغ نصف عددهم في السنة التي مرت. وخاصة أن عدد المصطافين المصريين في هذه السنة قليل جداً.

وقد أردت أن أفهم سبب عدم الإقبال في موسم الاصطياف الحاضر من بعض اللبنانيين، فلم أظفر بتعليلات وافية. فقد كان بعضهم يعللها بالحالة الاقتصادية الراهنة، وليست الأزمة الاقتصادية هذا العام أشد منها في عام مضى، وكان آخرون يعللون انصراف المصريين عن الاصطياف في لبنان بانشغال كبار المصريين بشؤونهم السياسية الحاضرة، وما هذا بالتعليل الذي يطمئن إليه الإنسان ما دامت المصايف في أوروبا والأستانة مملوءة بالمصريين.

وأظن أنني لا أقول شيئا جديدا إذا قلت أن اللبنانيين لايزالون بحاجة إلى شيء من التسامح الديني، والنزول عن كثير من تلك العنعنات والخرافات الخاوية التي ورثوها عن القرون البائدة، ليستطيعوا ان يكونوا حقيقيين بشَد الرحال إلى بلادهم، والاصطياف بينهم، وخاصة من تلك الطبقة الراقية من المصريين المسلمين الذين يؤلمهم أن يشاهدوا روح التعصب في بلاد يجب أن تكون أوساطها الاجتماعية خالية من الشوائب مثل جوها النقي الصافي.

وليس هذا شعور المسلمين المصريين فحسب، بل هو شعور المسلمين أنفسهم الذين يعيشون مع المسيحيين اللبنانيين تحت سماء واحدة. والمصطاف لا يقنع من الاصطياف بالصحة والهواء العليل والماء السلسبيل، وإنما يريد أن يجد في عيون أهل البلاد صفاءً وإخلاصاً، وأن يطالع في وجوههم حبا ورضواناً. أما وهو لا يظفر بشي من هذا، ولا يظفر إلا بالقليل مما أفلت من سلطة الأكليروس والتقاليد الوراثية العتيقة، فأجدر به أن ينفر من الاصطياف بلبنان وأن يطير حيث يتاح له رقة الهواء، وصفاء العيون والسماء!

وفي وسعي أن أقدم دليلا على قولي هذا. هذه القرية الصغيرة التي فتحت للاصطياف حديثا، وهي قرية (سير) (1) قرب طرابلس؛ فقد قصدت هذه القرية لزيارة صديق لي فيها، فوجدتها تعج بالمصطافين من أهل طرابلس، وقد اجتمعت إلى بعضهم فوجدتهم راضين كل الرضاء عن مصيفهم لجماله الطبيعي أولا، ثم لسكون أهله إليهم، وخلوص سمائهم من روح التعصب التي كانوا يستروحونها في قرى لبنان الشمالي. وقد حدثني بعضهم عما كانوا يجدونه من أثر هذا الروح الذميم يوم كانوا يصطافون في هذه القرى، قبل فتح طريق (سير)، ما دهشتُ منه عجباً.

وعلى ذكر طريق (سير) أريد أن أذكر للقارئ الكريم أن هذه الطريق هي أثر من آثار الثورة السورية، فلولا قدوم الثائر الشهير سعيد بك العاص إلى (سير) لما أنشئت هذه الطريق، ولما أتيح لهذه القرية الجميلة أن تفتح صدرها الأخضر للمصطافين، وفي هذا فضل للثورة السورية أو لسعيد بك العاص على قرية (سير) وجرود الضنية. وفي هذا دليل أيضاً على إهمال الحكومة اللبنانية لقرى الاصطياف الإسلامية، أو على ذلك الروح الذميم الذي نحن في صدده. فما كان أحرى بالحكومة اللبنانية بأن تعنى بتعبيد هذه الطريق إلى مصيف (سير) الجميل قبل الثورة، لولا أن شبح التعصب ماثل في القصر الكبير! وهناك في جرود (عكّار) مصايف جميلة جداً، كان حظها كحظ (سير) من الحكومة اللبنانية، فبقيت مقفلة في وجوه المصطافين ولم يتح لها سعيد عاص آخر يشب فيها الثورة ويفتح الطريق؟

نعم إنك لا تجد اليوم في هذه القرية المفتوحة حديثاً للاصطياف ما تجده في غيرها من قرى لبنان من وسائل التمتع والإتقان، ولكن الطرابلسيين راضون عن مصيفهم الجديد لما ذكرناه لك آنفاً، ولأن (سير) فضلا عن ذلك تمتاز بمناظرها الطبيعية الفتانة ومائها الدافق المثلج، وبوفرة أثمارها وخضرتها.

وعلى ذكر الإتقان ووسائل التمتع، أعود إلى ذكر مصيف زحلة وبلعبك وصوفر وغيرها، فقد شهدت في فندق (باليرا) و(عربيد) و(خوام) و(كونتيننتال) في بعلبك، وكذلك في نُزل (قادري) و(الصحة) و(الطرابلسي) في زحلة، من أسباب الإتقان والاستعداد ما أعجبتُ به كيثرا وخاصة في فندق (عربيد) الحديث بشكل معداته الأوروبية، ولو أن امثال هذه الفنادق المتقنة كانت محاطة بذلك الجو الصافي المشبع بروح التسامح والحب الذي نرجوه للبنان، لكان لبنان اليوم أعظم مصيف في العالم،

ونحن نكتب هذه الكلمة بروح الإخلاص والنزاهة ونرجو من أخوتنا أن يتلقوها بمثل هذه الروح، وألا يفهموا منا غير الحقيقة المجردة، وغير خدمة لبنان نفسه، مادام الاصطياف هو المورد الوحيد للبنان!

إن اللبنانيين لايزالون بحاجة إلى شيء من التسامح الديني والنزول عن كثير من العنعنات والخرافات الخاوية التي ورثوها عن القرون البائدة ليكونوا حقيقيين بشد الرحال إلى بلادهم

قصدت قرية "سير" لزيارة صديق لي فيها، فوجدتها تعج بالمصطافين من أهل طرابلس، وقد اجتمعت إلى بعضهم فوجدتهم راضين كل الرضاء عن مصيفهم لسكون أهله إليهم وخلوص سمائهم من روح التعصب

منشور من صفحة الطبيب الفلسطيني د. زياد رملاوي الشخصية على "فيسبوك" بتاريخ 29 - 9 - 2023

هوامش:

(1) السير: قرية لبنانية سياحية في قضاء الضنية، التابع لمحافظة شمال لبنان، تقع على علو 900 إلى 1150 متراً عن سطح البحر، وتبعد 28 كلم عن طرابلس.

(2) سعيد العاص: ثائر سوري من مواليد حماه عام 1889، تخرج من الكلية الحربية في اسطنبول عام 1970، والتحق بثورة إبراهيم هنانو، ثم بالثورة السورية الكبرى في جبل العرب وغوطة دمشق عام 1925 ثم التحق بثورة عام 1936 في فلسطين وقاتل مع عبد القادر الحسيني واستشهد هناك. (العربي القديم)

صادق جلال العظم (1969)

الدّروز في كتابين

بقلم: صادق جلال العظم

حينما صدر كتاب الدكتور سامي مكارم (أضواء على مسلك التوحيد: "الدروز")، وبعد أن قرأت التعليقات التي نشرت حوله في بعض الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، تكوّنت لديّ فكرة جزئية بأن الدكتور مكارم أراد الرد على الكتاب الممنوع الذي ألّفه الأستاذ عبدالله النجار تحت عنوان "مذهب الدروز والتوحيد"، كما أنني ظننت أن الدكتور مكارم أراد "تسليط الأضواء" على الكتاب الممنوع لا على المذهب الدرزي نفسه. غير أنني عندما فرغت من قراءة الكتابين المذكورين تبيّن لي كم كانت فكرتي التي كونتها عنهما، من خلال التعليقات المشار إليها، جزئية ومشوهة.

ومما استرعى انتباهي أن ما نشر حول كتاب الدكتور مكارم لم يتناول لب الكتاب بالمناقشة والنقد والتقييم ولم يركز على الافكار التي عرضها المؤلف وعلى النقاط التي أرادها أن تكون تصحيحاً لبعض الاخطاء التي وقعت في كتاب الأستاذ النجار، بل تركزت جهود المعلقين في الكلام عن الدوافع التي دعت الدكتور مكارم الى تأليف كتابه أصلا والتنويه بالملابسات، المؤسف حقاً، التي رافقت ظهور مؤلف الأستاذ النجار. وبعد التمعن في الأمر حصلت لديّ قناعة بأنه من الإجحاف بحق الدكتور مكارم أن ننظر إلى كتابه على أنه "رد" على ماورد في "مذهب الدروز و التوحيد" أو أنه مجرد إقرار لنظرة "الدروز الرسمية" ضد مفكر حر مثل الأستاذ عبد الله النجار. في الواقع وجدت أن الكتابين يتمم أحدهما الآخر في مواضع عديدة.

الفيض والتجلي

وقد أضاء الدكتور مكارم بعض النقاط الغامضة في كتاب الأستاذ النجار وبعض النواحي الفلسفية المستعصية من العقيدة الدرزية. وعلى سبيل المثال يعرض علينا الدكتور مكارم، من خلال مناقشته لما ورد في كتاب "مذهب الدروز والتوحيد"، الناحية الفلسفية من العقيدة الدرزية عرضا دقيقاً ومحكماً، ويُبيّن أسسها الفلسفية والتاريخية. وهذه الناحية من مذهب التوحيد لا تختلف الشيء الكثير عما سمّاه المفكرون المسلمون وفلاسفتهم "بالحكمة المشرقية" القائمة على نظرية أفلوطين في انبثاق (أو إشراق، أو فيض) الكائنات، خارج الزمان والمكان، من الخير المحض. ومع أن هذه الناحية مهمة جداً في العقيدة الدرزية فإن كتاب "مذهب الدروز والتوحيد" لم يعطها القدر الكافي من الشرح والإيضاح الذي لاريب أنها تستحقه. فالأستاذ النجار يدخل مباشرة في الكلام من نظرية الفيض والتجلي مستعملاً مصطلحاتها الخاصة بدون أن يبدأ بعرضها عرضاً منتظماً، يسهل على القارئ الإلمام بمبادئها وأفكارها الأساسية. فالقارئ غير المتمكن من الحكمة الشرقية والأفلاطونية المحدثة يجد نفسه أمام تعابير وكلمات لا معنى حقيقياً لها بالنسبة إليه، كما أن الدكتور مكارم يبين أمراً هاماً أغفله الأستاذ النجار في عرضه لنظرة العقيدة الدرزية إلى الحرية الأخلاقية.

لا تختلف العقيدة الدرزية من الناحية الفلسفية عما سمّاه المفكرون المسلمون "بالحكمة المشرقية" القائمة على نظرية أفلوطين في انبثاق أو إشراق الكائنات، خارج الزمان والمكان.

إذا كانت دعوى الأستاذ النجار صحيحة بأن مذهب التوحيد يقول بالقدرية، فالمذهب مع المعتزلة في هذا الاعتقاد لا مخالف لها

يقول الأستاذ النجار بأن مذهب التوحيد يعتقد بالتخيير، ولكنه لا يبين لنا شيئاً عن الحدود الموضوعة على حرية الإرادة الفردية في الاختيار (بالنسبة للعقيدة الدرزية ولجميع العقائد التي تقول بتقمص الأرواح). وقد بين الدكتور مكارم أن العقيدة الدرزية تقول، بالإضافة إلى التخيير، بأن "ممارسة حرية الاختيار هذه عملياً هي محدودة بما تراكم على الإنسان في أجياله السابقة والحاضرة من أعمال، اختارها لنفسه وجعلت نطاق حريته محدوداً، بقدر أثرها ونتائجها".

الجبرية والقدرية

في الواقع وقع الأستاذ النجار في خطأ آخر حول موضوع الحرية والتخيير لم يذكره الدكتور مكارم في كتابه. يقول الأستاذ النجار عن مذهب التوحيد ما يلي: " كما أن المذهب ينكر (القدرية) المطلقة. فهو ليس مع الأشعرية في أن كل شيء مقدر محتوم، ولا مع المعتزلة الذين نسبت إليهم القدرية. إذ أن المقدّر الجبري يتعارض مع الإيمان بالعدل الإلهي، وبالتخيير الذي يجعل المرء مسؤولاً عما يصدر عنه بإرادته واختياره".

من الجلي أن كاتب هذه السطور يأخذ (القدرية) بمعنى أن "كل شيء مقدر" أي بمعنى الجبر؛ غير أن القدرية في الفكر الاسلامي، مشتقة من قدرة الإنسان على خلق أفعاله لا من "القضاء والقدر" كما ظن الأستاذ النجار خطأ. فالقدرية هي نقيض الجبرية لا مرادفة لها، ولذلك نسبت القدرية إلى المعتزلة لأن هذه الفرقة قالت بالتخيير وبقدرة العبد على خلق أفعاله. ونسبت الجبرية إلى الأشعرية لأنها عطلت قدرة العبد وقالت بالتسيير. فإذا كانت دعوى الأستاذ النجار صحيحة بأن مذهب التوحيد يقول بالقدرية، فالمذهب مع المعتزلة في هذا الاعتقاد لا مخالف لها، وذلك بعكس ما قاله الأستاذ النجار في النص الذي أثبتناه أعلاه.

مشكلة المنطق

يقول الدكتور مكارم في بعض المواضيع من كتاب "أضواء على مسلك التوحيد"، أنه يصحح الاخطاء التي وقع فيها الأستاذ النجار ومن ثم يعرض علينا المعتقد الدرزي الصحيح حسب رأيه، ولكن الباحث المتجرد يجد نفسه في موقف حرج حيال دعوى كل من

الكاتبين الدرزيين بسبب عجزه عن الاستمرار في البحث والتنقيب، للتحقيق من صحة إحدى الدعوتين المطروحتين عليه، فالدكتور مكارم لم يستشهد في مواضع عديدة بنصوص دينية درزية ليبرهن لنا على أن ما يقوله هو الرأي الصائب بالنسبة للعقيدة الدرزية، وأن دعوى الأستاذ النجارالمناقضة لدعواه، لا أساس لها في المستندات الروحية لمذهب التوحيد. وعلى سبيل المثال سأعالج نقطة حساسة في العقيدة الدرزية نفاها الأستاذ النجار نفياً قاطعاً، بينما الدكتور مكارم أكد على أنها من الحقائق التي تقول بها عقائد مذهب التوحيد. أعني بذلك مشكلة "المنطق".

من المتداول بين عامة الدروز ما يسمونه "بالمنطق"، وهو الاعتقاد بأن الروح حين تنتقل من جسد إلى جسد، تحمل معها أحياناً معلومات عن "الدور" أو الجيل السابق الذي كانت فيه، فتتحدث عنه بما تعيه ذاكرتها. يعتبر الأستاذ النجار "المنطق" خرافة محض شائعة بين السذج والعامة ويقول إنه لا أصل له في العقيدة الدرزية. ولا يترك الأستاذ النجار أي مجال للشك في موقفه هذا، إذ يقول بكل جزم:

"إنني لم أجد كلمة واحدة، في جميع كتب "الحكمة"، تثبت هذا الزعم. بل وجدت ما ينفيه نفياً قاطعاً، لا يترك مجالاً للتأويل. مما يستوجب تعليل هذه الظاهرة، التي كثر تداول أخبارها، تعليلاً علمياً، حتى لا يجثم هذا المجهول في ظلمة العقول".

ثم يثبت بعض النصوص من "رسائل الحكمة" التي يعتقد أنها تؤيد وجهة نظره تأييداً تاماً.

ومن ناحية أخرى يقول الدكتور مكارم حول رأي الأستاذ النجار في المنطق ما يلي: "إن في هذا القول تحريفاً للواقع. فالأكثرية الساحقة من الدروز الذين يعتقدون بالتقمص، يعتقدون أيضاً بالمنطق... خصوصاً أن الاقوال التي استشهد بها من النصوص لا تنفي المنطق ولا علاقة لها بهذا الموضوع، وهي واردة في أصلها في غير معنى. ولو كان المؤلف قد أكمل بحثه واعتمد على النصوص التي تثبت إمكانية تذكير بعض ما يحدث في الحيوات السابقة. فالمستجيبون حسب ما جاء في النص إنما استجابوا إلى الدعوة بعد أن ذكّروا بالحق فذكروه وعرّفوه فعرفوه".

أعتقد أن قول الدكتور مكارم يتركنا في ظلام دامس حول هذه القضية. لقد رفض رأي الاستاذ النجار في موضوع المنطق ورفض تأويله للنصوص المذكورة ولكنه لم يأت بشاهد واحد ولا بأدنى بيّنة على صدق دعواه. والدكتور مكارم الذي أعلن أنه يريد معالجة الموضوع بجملته معالجة علمية مجردة، لا يتوقع منا أن نقبل برأيه لمجرد أنه سردها في كتابه بصورة تقريرية حاسمة.

فإذا كانت النصوص التي أثبتها الأستاذ النجار "لا تنفي المنطق وهي واردة في اصلها في غير معنى" حسب دعوى الدكتور مكارم، كان عليه إذاً أن يفصل القول في هذا الموضوع، ويبيّن لنا بوضوح كيف أن هذه النصوص لا تنفي "المنطق" وما هو المعنى الأصلي الذي وردت فيه. وطالما أن الدكتور مكارم لم يفعل شيئاً من هذا فما على الباحث إلا أن يعلق الحكم حول ما إذا كانت العقيدة الدرزية تقول حقاً "بالمنطق" أم لا، إلى أن تتوفر الأدلة والشواهد على صدق أحد هذين الرأيين المتضاربين، ولا شك أن موقف الأستاذ النجار حول هذا الموضوع أقوى وأمتن من موقف الدكتور مكارم، بسبب استشهاده بنصوص وبينات لم يرد عليها الدكتور مكارم بالطريقة

من المتداول بين عامة الدروز ما يسمونه "بالمنطق" وهو الاعتقاد بأن الروح حين تنتقل من جسد إلى جسد، تحمل معها أحياناً معلومات عن "الدور" أو الجيل السابق الذي كانت فيه، فتتحدث عنه بما تعيه ذاكرتها

ميّز الأستاذ النجار في كتابه بين عقيدة تقمص الأوراح وبين عقيدة تناسخ الأرواح، وقال إن المذهب الدرزي يقول بالأولى ويرفض الثانية لأنها تعني"المسخ" (أي تحويل صورة الشيء إلى صورة أقبح منهاً) والعقيدة الدرزية لا تقول بمسخ الأرواح من الصورة البشرية إلى صورة حيوانية

العلمية المعروفة. أعتقد أن المنطق، من الناحية المنطقية البحتة، نتيجة تلزم عن نظرية التقمص التي يقول بها مذهب التوحيد. وذلك لأنه من المستبعد جداً ألا تتذكر النفس بعض الأمور عن حياتها السابقة فتنطق بها في حياتها الحاضرة. والخلاف بين الدكتور مكارم والأستاذ النجار يتركز في أن الأول يقول بأن العقيدة الدرزية تقبل بهذه النتيجة بينما يقول الثاني عكس ذلك. ولا أدري أيهما على حق، ولا أدري كيفية الوصول إلى الحقيقة حول هذا الموضوع.

تقمص الأرواح

كان الدكتور مكارم مقتضباً جداً في معالجته لعقيدة تقمص الأرواح، مع أنها من أطرف الموضوعات التي يمكن للمفكر أن يعالجها في العقائد الدينية. ولم يأت بأي شيء هام بالإضافة إلى ما قاله الأستاذ النجار في كتابه، سوى تصحيح بعض الهفوات التي يبدو أن المؤلف وقع فيها. وهنا أيضاً يعرض علينا الدكتور مكارم ما يراه أنه وجهة نظر الدرزية الصحيحة حول عقيدة التقمص بصورة تقريرية، بدون اللجوء إلى الشواهد والبينات التي يجب أن تكون الأساس الوحيد لقناعتنا بصحة دعواه وبطلان دعوى الأستاذ النجار. ورجوع الدكتور مكارم في هذا الموضوع إلى بعض المصادر العامة حول عقيدة التقمص والمنطق لا يفيدنا بشيء، لأن المشكلة التي نعالجها ليست إثبات أو نفي حقيقة التقمص والمنطق، وإنما التأكد من حقيقة موقف العقيدة الدرزية منهما.

ميّز الأستاذ النجار في كتابه بين عقيدة تقمص الأرواح وبين عقيدة تناسخ الأرواح، وقال إن المذهب الدرزي يقول بالأولى ويرفض الثانية لأنها تعني" المسخ" (اي تحويل صورة الشيء إلى صورة أقبح منها، مثل مسخ الإنسان قرداً) والعقيدة الدرزية لا تقول بمسخ الأرواح من الصورة البشرية إلى صورة حيوانية، ولا بانتقالها إلى نبات (الرسخ) أو جماد (الفسخ). غير أن الأستاذ النجار أخذ عقيدة تناسخ الأرواح بمعناها الحرفي الشائع لا بمعناها الروحي والفلسفي الباطني. والدكتور مكارم لم يعالجها من هذه الناحية أيضاً. فلو تنبهنا لمحتوى العقيدة المعنوي والروحي لوجدنا أن فكرة التناسخ متممة في الواقع لعقيدة التقمص. ولإيضاح ذلك نعود الى تعاليم الحكمة الشرقية (الأفلاطونية المحدثة) التي تقول إن الأنفس الجزئية ليست إلا أجزاء متكثرة ومتعددة للنفس الكلية (لنذكر هنا أن الجزئيات نسخ متعددة لمثال واحد عند أفلاطون) وبهذا المعنى بإمكاننا اعتبارها "نسخاً" عن النفس الكلية . كما أن تعدد النفس الكلية وتكثرها وتجزؤها هي عملية "تناسخ"، أي عملية ترديد للصورة الكلية الواحدة في نسخ متعددة (هي الأنفس الجزئية) أدنى منها مرتبة وكمالاً، وجمالاً، وبهاءً من النفس الكلية ذاتها. فالنسخة لا تكون أبداً في كمال الأصل وهي دائماً أدنى في كمالها من المنسوخ عنه وهنا حديث نبوي يقول: "إن الله خلق آدم على صورته" كما ورد في التوراة: "فخلق الله الإنسان على صورته".

والشبه المقصود هنا بين الخالق والمخلوق ليس شبها خارجياً أو شبه بالصورة الظاهرة، وإنما هو من باب الشبه القائم بين الكليات وبين الجزئيات المندرجة تحتها – هذا الشبه الذي لا سبيل إلى إدراكه إدراكاً صحيحاً وتاماً إلا عن طريق الحدس والذوق؛ فإذا لجأنا إلى تعابير عقيدة التناسخ استطعنا أن تقول أن جوهر آدم الروحي نسخة جزئية عن الحقيقة الروحية المطلقة، بالإضافة إلى ذلك يعني

النسخ أيضاً إبطال الشيء أو إزالته، أي أن تناسخ النفس عن النفس الأصلية يزيل عن الأولى صفة الكلية، ويحل محلها صفة الجزئية.

نرى إذاً أن عقيدة تناسخ الأرواح بمعناها الفلسفي الروحي لا تتعارض بشيء مع نظرية التقمص، ولا مع بقية العقائد الدرزية (ضمن الحدود التي وضحت لنا حتى الآن). ويتضح هذا الأمر إذا ذكرنا أن عقيدة مذهب التوحيد تستند إلى الحكمة المشرقية وإلى فكرة التجلي في نواحيها الفلسفية، وعقيدة تناسخ الأرواح كما بيناها هي من صلب الحكمة المشرقية. بل إن عقيدة التقمص نفسها تقول "بالمسخ"، بالمعنى الروحي للعبارة: فعندما تدخل روح إنسان ما إلى جسد آخر أدنى مرتبة من الجسد السابق الذي كانت فيه، فإنها تكون قد "مسخت" إلى حد ما، بمعنى أنها ابتعدت قليلاً أو كثيراً عن النفس الكلية التي انبثقت عنها والتي تصبو للعودة إليها، وبمعنى أنها أصبحت في مرتبة أدنى مما كانت عليه في سلم الكمالات كما تراه الحكمة المشرقية. كما أني أجد عقيدة تقمص الأرواح نظرية طريفة جداً و"معقولة" إلى حد أبعد بكثير من النظرية التقليدية القائلة بمجرد خلود النفس بعد فناء الجسد، لأن نظرية خلود النفس تثير أسئلة ومشكلات محيرة حول مصير الروح بعد موت جسدها، وقبل حشرها يوم القيامة. بينما نجد أن نظرية التقمص تجيب على هذه الأسئلة بوضوح؛ كما أن لنظرية التقمص حسنات أخلاقية نوه بها الاستاذ النجار، إذ لا يقوم حساب النفس حسب عقيدة التقمص على أساس حياة واحدة قصيرة، وإنما على مدى دهر طويل وفي حيوات متنوعة تؤثر كل واحدة منها على الأخرى (من الناحية الاخلاقية)، وتمنح النفس بذلك دهراً طويلاً فرصاً كبيرة لاكتساب العقاب والثواب والنجاة أو الهلاك. ويكون حسابها عندئذ على مجموعة ما كسبت في حيواتها المتعددة، لأن مكتسبات النفس ذات طابع تراكمي. ويجب أن أذكر هنا أن الأستاذ النجار بيّن أن عبارة "المسخ" واردة في العقيدة الدرزية ولكن ليس بمعناها الحرفي، وإنما بمعناها الباطني الذي يشير إلى التشويه الروحي ولاخلاقي الذي يطرأ على النفس. وهو يستشهد ببعض النصوص الجميلة ــ تدليلاً على دعواه ــ من رسائل الحكمة، نذكر منها النص التالي:

"يا أصحاب الأجسام الخالية من الأرواح... والهياكل القائمة كظلام الأشباح... عكست نفوسكم، وتقهقرت في درج المسوخية، بالانخفاض والانسفال".

سرية العقائد الدرزية

من أهم النقاط التي أثارها الدكتور مكارم مشكلة سرية العقائد الدرزية وسترها عن العامة. وهنا يميز الدكتور مكارم بين الشق العقلي في عقيدة المذهب التوحيدي، وهو النظرية الميتافزيقية المسماة بالحكمة المشرقية وما تستلزمه من نظرات أخلاقية واجتماعية، وهي مكشوفة لكل من أحب الاطلاع عليها ووجد في نفسه القدرة على تعلم مبادئها ومصطلحاتها، وبين الشق العرفاني الذي "يتعلق بالتأويلات اليقينية" والحقائق الناتجة عن " الاستكشاف العرفاني"، وهي أمور تستحيل على عامة الناس، الذين لم يختبروها، فهمها واستيعابها وهم إن اطلعوا عليها أساؤوا فهمها وأساؤوا إلى أصحابها وإلى أنفسهم. يذكر الدكتور مكارم بهذا الصدد أنّ الحكماء والفلاسفة أوصوا بستر هذه الحقائق عن العامة، ويستشهد بابن رشد وغيره من المفكرين والعلماء الذين عالجوا هذا الموضوع.

أني أجد عقيدة تقمص الأرواح نظرية طريفة جداً و"معقولة" إلى حد أبعد بكثير من النظرية التقليدية القائلة بمجرد خلود النفس بعد فناء الجسد

يعترف الدكتور مكارم في موضع آخر بأهمية الاسباب الاجتماعية والعملية في جعل العقيدة الدرزية عقيدة سرية ومستورة

مجرد كون بعض الحقائق لا تُفهم ولا تُدرك إلا من قبل الخاصة، لا يوجب وحده سترها وإخفاءها ففي كل دين أسرار وحقائق تخفى وتستعصي على العامة، ولا يفهمها إلا الخاصة!

وهنا يبين الدكتور مكارم أن أسباب الستر لم تكن كما قال الأستاذ النجار، نتيجة لعوامل اجتماعية وأسباب عملية، أهمها الوقاية من العدوان على أصحاب المذهب والصيانة لعقيدتهم ولأنفسهم من الاضطهاد، وإنما لأن "السرية" هي بالأصل عقيدة أساسية في مسلك التوحيد، كما هي في جميع المسالك العرفانية المعروفة"، ولأن" صيانة الحقائق في مسلك التوحيد هي أصل وأسّ رئيسي لا نهج طارئ".

أعتقد أن الدكتور مكارم غالى بدون مبرر في رفضه للتعليلات الاجتماعية والعملية لعقيدة الستر عند الدروز خاصة وفي المذاهب العرفانية عامة.

كما أنه غالى في تشديده على أن الستر والسرية في المذاهب العرفانية هي من جوهر العقيدة المذهبية، وفي رفضه للرأي الذي قال به الأستاذ النجار. يقول الدكتور مكارم حول هذا الموضوع: "فكشف أسرار الحقيقة الأخيرة للوجود إذاً يعرضها، كما تقول مسالك العرفان، إلى ضروب من التأويل والتحريف وإساءة الفهم من جانب الذي يجهلون هذه المسالك العرفانية. وهذه حسب معتقد التوحيد، يكون أسوأ أثراً بكثير من إبقاء هذا المسلك على سريته، كما أن أحداً لا يستفيد من هذا الكشف، كما يقول الدروز، إلا إذا كان قد سلك هذا المسلك العرفاني وعاش فيه وشعر به واختبره".

ولعله لم يخطر ببال المؤلف أنه بالرغم من أن نهج صيانة الحقائق وسترها في مسالك العرفان ليس نهجاً طارئاً عليها، فإن من الأرجح أن هذا النهج طرأ عليها، في يوم من الأيام لأسباب اجتماعية معينة ومبررات علمية معروفة، ومن ثم تحول مع مرور الزمن، إلى ركن رئيسي من أركان عقيدتها؛ وبقي كذلك حتى بعد أن زالت جميع الأسباب والظروف التي أدت إلى إدخاله في المذهب. ومثل هذه الأحداث تطرأ على جميع الديانات والعقائد، المكشوفة منها والمستورة.

بالإضافة إلى ذلك أن قراءة دقيقة للنص الذي استشهد به الدكتور مكارم من كتابات ابن رشد حول موضوع الستر والسرية، يبين لنا أن الفيلسوف الكبير أوصى بستر "التأويلات اليقينية" والحقائق العرفانية لأسباب اجتماعية وعملية عائدة إلى النتائج السيئة والعواقب الوخيمة التي تؤدي إليها كشف مثل هذه الأمور لعامة الناس. فابن رشد حسب النص المذكور يبغي ستر هذه الحقائق لا حباً بالستر ذاته، ولا لمجرد حرصه على الحقيقة الخالصة، وإنما لأن إفشاءها قد تكون له عواقب غير محمودة على أصحاب المذهب أنفسهم، وعلى عامة الناس ممن يسمع بهذه الحقائق وهو ليس من أهلها.

ويعترف الدكتور مكارم في موضع آخر بأهمية الأسباب الاجتماعية والعملية في جعل العقيدة الدرزية عقيدة سرية ومستورة إذ يقول: "لذلك كانت هذه الصيانة في قصدها الأول والأصيل وقاية للعامة من الناس الذين لا يقوون على هذا المرتقى الجليل في مرتقى التوحيد، فتكون أذى لهم وإفساداً للظاهر الذي به يؤمنون، وهكذا يندفعون لما اختلط في نفوسهم وأشكل عليهم من حقيقة التوحيد والعرفان، إلى إيذاء رجاله ومريديه وإلى سوء فهم هذه الحقيقة".

أي أن الستر لم يأت لمجرد الحفاظ على الحقائق العرفانية كما يوحي الدكتور مكارم في مواضع عديدة من كتابه. أضف إلى ذلك أن مجرد كون بعض الحقائق لا تفهم ولا تدرك إلا من قبل الخاصة لا يوجب

وحده سترها وإخفاءها ففي كل دين أسرار وحقائق تخفى وتستعصي على العامة، ولا يفهمها إلا الخاصة، وفي كل علم بما فيها العلوم الطبيعية، حقائق صعبة المنال تتطلب جهداً كبيراً ودراسة طويلة، لاستيعابها وفهمها حق الفهم.

ولكن هذا الاعتبار بحد ذاته لا يستوجب ضرب نطاق من السرية والكتمان حولها. أعتقد أن الأستاذ النجار على صواب في إرجاعه عقيدة الستر إلى أسباب عملية واجتماعية، وهو على حق في توقعه زوالها بعد زوال الأسباب والموجبات التي أدت إلى إدخالها في المذهب. وما كتاب الدكتور مكارم وكتاب الأستاذ النجار غير دليل على بداية هذا الاتجاه.

عقيدة الحلول

لا أدري لماذا ينظر الدكتور مكارم إلى عقيدة وحدة الوجود والحلول على أنها نوع من التهمة التي يجب ردها عن مذهب التوحيد. واذكر هنا أن مقدم الكتاب، الأستاذ كمال جنبلاط، نظر نظرة مماثلة إلى وحدة الوجود في معرض دفاعه عن محي الدين بن عربي. وبهذه المناسبة استشهد الدكتور مكارم بكتاب المتصوف الكبير فريد الدين العطار (منطق الطير) لأن "الشاعر الصوفي الكبير يعبرعما عبر عنه معتقد التوحيد"، حسب قوله. وبعد ذلك ينفي الدكتور مكارم أن مذهب التوحيد يقول بالحلول في الذات الإلهية: "غير أن هذه الصورة الناسوتية التي ينعم بمشاهدتها العراف المتحققون، وكأنهم ينظرون إلى وجوههم في المرآة ، لا تعني حلولاً في ذات الله". ولكن إذا دققنا النظر في أقوال فريد الدين العطار - التي استشهد بها المؤلف - عن المرحلة الأخيرة في رحلة طيور السي مرغ لبلوغ ملكهن طائر السيمرغ، نجد التعبير التالي عن حالة الوصول الصوفي: "وقد أذهلهن هذا حتى أنهن لم يدركن إذا كنّ لم يزلن أنفسهنّ، أم أنهن قد أصبحن السيمرغ ذاته. أخيراً، وفي حالة من التأمل، تحققن أنهن السيمرغ، وأن السيمرغ هو الطيور الثلاثون (سي مرغ). وعندما كن يَشخَصن بالسيمرغ كي يرين أن السيمرغ حقيقة هو هناك، وعندما كن يدرن أبصارهن إلى أنفسهن وإلى السيمرغ معاً، كن يرين أنهن والسيمرغ كائن واحد".

أو ليس هذا الكلام تعبيراً واضحاً كل الوضوح عن حالة الاتحاد بالذات الإلهية والحلول فيها والفناء فيها؟ وإذا كان العطار يعبر عما عبر عنه معتقد التوحيد، فلا مناص من القول بأن معتقد التوحيد يقول بعقيدة الحلول، وليس في ذلك أي تهمة يجب نفيها عن العقيدة الدرزية، بل بالعكس يحق لها أن تفخر بذلك، لأن طريق الصوفية كانت دائماً الطريق الأساسية، لتعميق الوجدان الديني والشعور بالاتصال والتعاطف مع جميع الكائنات من خلال الاتصال بالذات الإلهية. ولذلك كانت نفس الصوفي الكبير تشع دائماً محبة لا متناهية تشمل الكائنات كلها برعايتها، تلك المحبة التي لا يمكن اكتسابها إلا بالفناء في المحبة الإلهية نفسها: وما الفارق بالنسبة للصوفي الحقيقي، بين المحبة الإلهية الخالصة وبين الذات الإلهية؟

الانتماء إلى الإسلام

يعرف الدكتور مكارم الدرزية على أنها "مسلك توحيدي استجاب إلى الإسلام وأدرج فيها، غير أنه كان مستبطناً أيضاً في الشرائع التي تقدمت الإسلام". وهذا التعريف يثير سؤالاً هاماً: إلى أي حد يمكننا أن نعتبر الدروز إسلاماً حسب التعريف المتواضع عليه، والسائد للإسلام وعقائده؟

إلى أي حد يمكننا أن نعتبر الدروز إسلاماً حسب التعريف السائد للإسلام وعقائده؟

لابد لنا من نفي صفة الإسلام عن العقيدة الدرزية بالمعنى المذهبي والعقائدي للعبارة. وأنا لا أعبر عن هذا الرأي باعتباره نقداً أو مأخذاً عليها.

لا شك أن المذهب الدرزي مشتق من الفرق الإسلامية العديدة، ولا ريب أنه نما وترعرع ضمن نطاق الحضارة الإسلامية وإطارها الثقافي والديني واللغوي والفلسفي. ولكن السؤال الذي طرحناه لا يتعلق بتاريخ الدرزية وجذورها، وإنما هو سؤال مذهبي يتعلق بالعقائد الدرزية الجوهرية ومدى تطابقها مع العقائد الإسلامية التي تحدد جوهر الإسلام وفحواه.

ويبدو لي، مما اطلعت عليه، أن العقيدة الدرزية لا تؤمن برسالة محمد وبنبوته ودعوته بالمعنى الذي يؤمن بها المسلم ويتقبلها، كما أن العقيدة الدرزية لا تؤمن بما يتبع من نبوة محمد من النتائج مثل كونه "سيد المرسلين" و"خاتم الأنبياء" ألخ... ولذلك لابد لنا من نفي صفة الإسلام عن العقيدة الدرزية بالمعنى المذهبي والعقائدي للعبارة. وأنا لا أعبر عن هذا الرأي باعتباره نقداً أو مأخذاً على العقيدة الدرزية، بل بالعكس أقوله احتراماً مني لها كعقيدة دينية قائمة بذاتها، لها مقومات أساسية تعطيها طابعها الخاص والمميز عن بقية الديانات، علماً بانها تفاعلت تفاعلاً مجدياً وخلاقاً مع البيئة الحضارية والثقافية التي وجدت فيها، فكانت مذهباً روحياً غنياً جمع بين العقل والإشراق الصوفي، وبين الحكمة والعاطفة الدينية الحية.

مجلة (حوار) العدد (23) آب/ أغسطس 1966

العربي القديم تنفرد بنشر فصل من مذكراته:

المخرج مأمون البني: أستاذ الديانة المصرّي اتهمني بالإلحاد... والمسرح المدرسي عرّفني بياسر العظمة

أنهى المخرج السوري مؤخراً كتابة مذكرات حياته الحافلة التي عاشها، منذ تفتحت عيناه على الدنيا في حي سوق ساروجة الدمشقي في أربعينيات القرن العشرين، وحتى سنوات منفاه الباريسي الذي اختاره بعد خروجه من سورية، وتنقله بين دبي وبيروت ومدن أخرى. وقد خص الأستاذ مأمون (العربي القديم) مشكوراً، بهذا الفصل الشيق من مذكراته، وهو يتناول سنوات فترة الوحدة ثم الانفصال بين نهاية خمسينيات القرن العشرين، ومطلع الستينيات، سارداً بلغة رشيقة وعين يقظة مشاهداته الحية والملهمة.

فاجأ الرئيس جمال عبد الناصر العالم في شهر تموز – يوليو 1956 بتأميمه قناة السويس، والذي كان سبباً في إعلان بريطانيا، وفرنسا بمشاركة إسرائيل الحرب على مصر، وعُرف بالعدوان الثلاثي الذي انتهى بانسحابها تحت ضغوط دولية، ومقاومة شعبية شرسة سواء من الداخل المصري، أو من بعض البلاد العربية مثل سوريا التي وقفت جيشاً وشعباً ضدّه، وقامت بنسف أنابيب النفط المتجهة إلى القارة الأوروبية، والتي تعبر الأراضي السورية، باتجاه البحر المتوسط. كما استشهد طالب الكلية البحرية الضابط السوري جول جمال ورفيقاه، وهما مصري، وآخر سوري اسمه نخلة سكاف، حين قاموا بنسف البارجة الفرنسية جان دارك.

قصص كثيرة رُويت عن حرب ال 56 منها الصحيح، ومنها ما كان من صناعة آلة الإعلام المصري الذي لم يجرؤ أيّ عربي على تكذيبه، إلا بعد موت عبد الناصر؛ فانبرت أقلام معادية لمسيرته تفنّد أكاذيب إعلامه حينها، وكان منها الصحيح، ومنها ما فبركه اللوبي الآخر المسيطر سياسياً، والذي نما، وتمدد بعد السبعينات من القرن العشرين.

قامت الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958، وبدأت وزارة المعارف تطلب من المدرسين سوقنا إلى ساحة الضيافة، إما للتعبير عن قبولنا وفرحنا بإقامة الوحدة، أو للتهليل والتطبيل للأسمر عبد الناصر. كنت فرحاً أني سأنهي الصف الخامس، وأحصل على الشهادة الابتدائية، لأنتقل إلى الصف السادس الإعدادي مدرسة اليافعين، لكن أنا، وأبناء صفي صُعقنا.! فبعد حصولنا على شهادة السرتفيكا كان علينا العودة مجدداً إلى المدرسة الابتدائية، لنيل الشهادة الابتدائية، والتي أصبحت حسب قرار عبد الناصر تُمنح بعد امتحان الصف السادس، وكان بالنسبة لي أول سقطة لسياسة عبد الناصر!

كانت السقطة بالنسبة لعمري مختلفة عن السقطات الجسام التي تكلم عنها خالد العظم في مذكراته. حين قال: "إن جمال عبد الناصر اشترط لتوقيع صك الوحدة أن تأتي كامل الحكومة السورية إلى القاهرة،

بعد حصولنا على شهادة السرتفيكا كان علينا العودة مجدداً إلى المدرسة لنيل الشهادة الابتدائية، التي أصبحت حسب قرار عبد الناصر تُمنح بعد امتحان الصف السادس وكان هذا بالنسبة لي أول سقطة لعبد الناصر

كان حظ مدرستنا الإعدادية الثامنة في حي القزازين سيئاً مع الأستاذ المصري المُعار.

لحضور مراسم التوقيع بين الرئيسين السوري والمصري، وأيضاً وجوب حضور الضباط الثلاثة عشر الذين أخذوا على عاتقهم أمام عبد الناصر إجبار الحكومة السورية بالموافقة على الوحدة، وإلا سيحدث الانقلاب لا محال".

كان من بين الضباط عفيف البزرة، وأمين النفوري، وأحمد عبد الكريم، ووزير الخارجية صلاح البيطار المدني الوحيد رقم 14. خضعت الحكومة لذلك، وفي الطائرة التي أقلت الوزراء قال خالد العظم للرئيس القوتلي: "كم أتمنى أن تقصف إسرائيل هذه الطائرة التي تقلنا عسى أن يتعثر قيام هذه الوحدة التي لا أضمن استمراريتها.." كما كتب في مذكراته عن عبد الناصر أنه استبدل الرموز الوطنية السياسية في سوريا بالجلاد (السلطان الأحمر) عبد الحميد السرّاج صديق الأمريكان.

أقام عبد الناصر حفلاً كبيراً، بمناسبة التوقيع على قيام الوحدة، واحتفى بضيوفه السوريين أجمل احتفاء، لكن وبعد الانتهاء من التوقيع، وإعلان الوحدة، واقتراب عودتنا (والكلام لخالد العظم) قدمت لنا المراسم الرئاسية طائرة عسكرية، لتقلنا إلى المطار العسكري في مدينة الإسكندرية، ومن هناك نستقل طائرتنا، وادَّعوا أن السبب أمني.. وصلنا المطار العسكري في الإسكندرية، ونزلنا للغداء، وإذ بطاولات ألمنيوم عليها طناجر من الأرز، وبضع قطع من اللحم وزعها علينا العساكر ضمن قصعات، عندها وقف الرئيس القوتلي، والدمعة تلمع بعينه، فنظرت إليه، وقلت أعتقد أن الأمر قد انتهى..

حظ سيئ مع المدرس المصري

بعد نيل الشهادة الابتدائية الثانية انتقلت إلى الإعدادي، ولم نوفق بأساتذة مصريين معارين جيدين، فقد كان حظ مدرستنا الإعدادية الثامنة في حي القزازين (وراء مقبرة الدحداح) سيئاً، وحظيت باشتباكات عدة معهم. فقد كان أستاذ الأشغال اليدوية هو نفسه مدرس مادة الديانة، ولم يكن يستسيغ أسئلة تثير التفكير، وكنا بعمر بداية تشكّل الوعي، وبحاجة ماسة لمن يجيب عن أسئلة مكبوتة

لدينا، لأن (التابو) الديني يمنعنا من طرح الأسئلة التي تثير تساؤلات تتعلق بعلاقة الإله بالإنسان، وما على الفرد إلا الطاعة والانقياد، وترك مسائل حل الألغاز الدينية للفقهاء...!

اكتظت أسواق دمشق بالسائحين المصريين، واكتسحت اللهجة المصرية الشارع السوري، فقد كانت محببة لدى السوريين، من خلال الأفلام والتمثيليات، والمسلسلات الإذاعية التي كانت بدورها رائجة جداً، ومتابعة من قبل أكثر الناس، وخاصة من النساء والرجال الذين في عمر التقاعد، كونهم يلازمون بيوتهم طيلة ساعات اليوم. ومن الطريف أن أسواق دمشق التجارية كثر فيها بائعو البسطات، أو المتعيشون، كما جرت تسميتهم، وهؤلاء كان جلّهم من المصريين الذين اكتسحوا الساحة بلهجتهم المصرية، وتفننوا ببيع أشياء لم تكن معروفة عندنا، مثل بيع قمصان النايلون بدون كوي، فالبائع ودون أن يصمت ولو للحظة يروّج لبضاعته، يغطس القميص في الماء، ومن ثم يدعكه بيديه، وبعد ذلك يفرده وكأنه خرج مكوياً، ويبيعه بأسعار زهيدة. هذه القمصان نافست مع الأسف أسعار القمصان القطنية السورية الصحية للجسم، وهذا البائع رأيت كيف تم القبض عليه بعد الانفصال، لاتهامه أنه عنصر من المخابرات المصرية.

عبد الحليم في دمشق

بدأت آلات الإعلام، والدعاية المصرية تنشط بشكل فعال تبهر الجماهير السورية التي هي أصلاً متحمسة للمقولة: "في الاتحاد قوة"، فكيف وهي ترى، وتسمع أهم النجوم المصريين بشحمهم ولحمهم في سوريا يتغنون بالوحدة العربية؟ ولتنشيط ذلك قام مكتب الإعلام بعرض أفلام على شاشات عملاقة شيدت في الساحات العامة، لإثارة حماس الناس. وقد شاهدت أفلاماً تجمع مطربي الصف الأول، وفي مقدمتهم الفنان الكبير عبد الحليم حافظ.

أحيا عبد الحليم بدوره حفلاً ساهراً في سينما دمشق بعد ثلاثة أيام من إعلان الوحدة في 25 شباط 1958 وغنى أغنية جميلة احتفاءً بهذه المناسبة أبهر فيها الحضور، قال فيها:

غني يا قلبي وهني الدنيا وقول مبروك
كبر البيت وتجمع شملك أنت وأخوك
وقول للدنيا ده أجمل عيد
مصر وسوريا انخلقوا جديد
غني يا قلبي غني يا قلبي
طلعة بهية ياما أحلى جمالها
زادت سوريا مجد وقوة
زارها البطل الحر جمالها
هو حبيبها الغالي هو.... إلخ

جمال عبد الناصر كان بين الحاضرين، لأن يوم 24 شباط – فبراير، أي قبل يوم واحد من الحفل أسرع رئيس الأركان عفيف البزرة إلى مطار دمشق، ليستقبل المشير عبد الحكيم عامر، وإذ يُفاجأ بقدوم الريس شخصياً، وانتشر الخبر بسرعة البرق، فهبت دمشق زاحفةً بأسرها إلى ساحة الضيافة رغبة منها بمشاهدة زعيم الأمة، وقائد القومية العربية، ومؤمم قناة السويس المنتصر على الحلف الثلاثي في 1956.. ألقى جمال يومها خطابه المشهور، وأكمل شكري القوتلي كلمة المواطن الأول، قبل أن يرحل إلى منفاه الاختياري في سويسرا.

من الطريف أن أسواق دمشق التجارية كثر فيها بائعو البسطات أو المتعيشون، وجلّهم من المصريين الذين اكتسحوا الساحة بلهجتهم المصرية وتفننوا ببيع أشياء لم تكن معروفة عندنا.

قام مكتب الإعلام بعرض أفلام على شاشات عملاقة شيدت في الساحات العامة، لإثارة حماس الناس. وقد شاهدت أفلاماً تجمع مطربي الصف الأول، وفي مقدمتهم الفنان الكبير عبد الحليم حافظ

مقتطف من خطاب عبد الناصر:

أيها المواطنون
السلام عليكم ورحمة الله
إنني أشعر الآن، وأنا بينكم بأسعد لحظة من حياتي، فقد كنت دائماً أنظر إلى دمشق وإليكم، وإلى سوريا وأترقب اليوم الذي أقابلكم فيه، والنهارده.. النهارده أزور سوريا قلب العروبة النابض.. سوريا اللى حملت دايماً راية القومية العربية.. سوريا اللى كانت دايماً تنادى بالقومية العربية.. سوريا اللى كانت دائماً تتفاعل من عميق القلب مع العرب في كل مكان
واليوم - أيها الإخوة المواطنون - حقق الله هذا الأمل وهذا الترقب، وأنا ألتقي معكم في هذا اليوم الخالد، بعد أن تحققت الجمهورية العربية المتحدة.

وبالمقابل استهل القوتلي كلمته:

يا أخوة العرب هذا يوم مشهود من أيام العمر،
هذا يوم عظيم في تاريخ أمة العرب، وتحول كبير في مجرى الأحداث العالمية في هذا العصر، في هذا المكان، من هذه المدينة العربية العظيمة نعلن على الملأ باسم الشعب العربي في كل من الجزأين العربيين الغاليين مولد الجمهورية العربية المتحدة.
وما إن انتهت مراسم الاستقبال الشعبي، لمشاهدة الأسمر عبد الناصر على شرفة قصر الضيافة في شارع أبو رمانة، حتى تراكض الناس للاستماع إلى الإذاعة التي تقوم عبر الأثير بنقل وقائع حفلة أضواء المدينة، التي قدمها صاحب الصوت الإذاعي الرخيم جلال معوض. وللتمتع كذلك بمشاهدة وسماع نجوم الفن في الإقليم الجنوبي يغنون ويرقصون على أنغام الفرقة الماسية بقيادة المايسترو أحمد فؤاد حسن، وبالطبع الختام توّج مع العندليب المعشوق عبد الحليم حافظ.

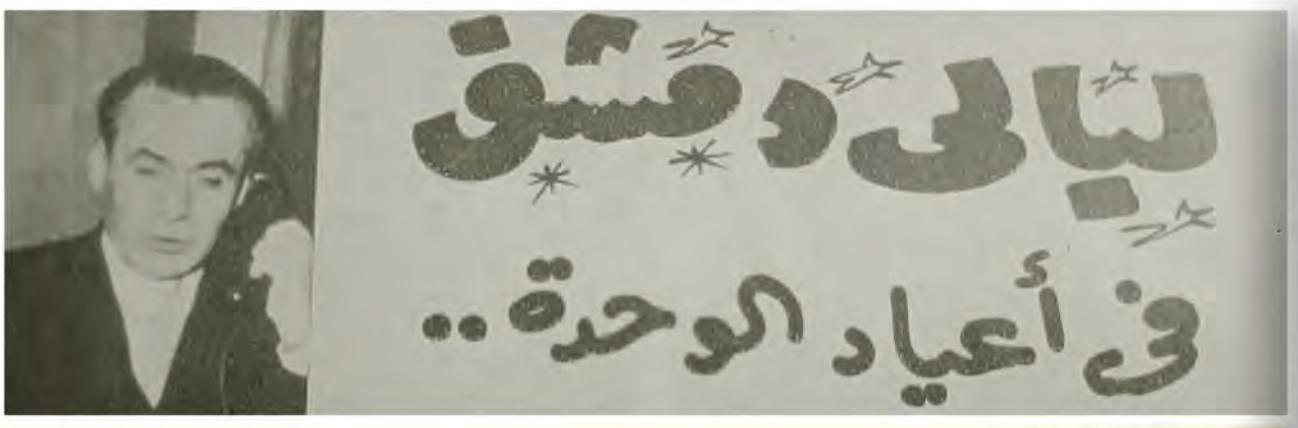

من اليسار الى اليمين : تيسير السعدي ـ رفيق السبيعي ـ انـور البابا ـ ويبو الصيداوي ـ عبـد السلام ابو الشامات (ابو ابراهيم)ـ فهد كعيكاتى (ابو فهمى)ـ حكمت محسن (ابو رشـدي)

(من أرشيف العربي القديم)

كانت حفلات أضواء المدينة التي نظمها المصريون تُطعّم فقراتها ببعض الإسكتشات، أو وقفات مع الفنانين السوريين أمثال: الثنائي أبو فهمي (فهد كعيكاتي)، وأم كامل (أنور البابا)، أو المونولوجيست السوري سلامة الأغواني، أو مطرب الرجولة فهد بلان.

نجوم الإذاعة يتسيدون الساحة

كانت الإذاعات في الخمسينات الشغل الشاغل للمجتمعات العربية، لعدم وجود التلفزيون، وبالتالي كان المذيعون، ومقدمو البرامج نجوماً في الأوساط العربية. وأكثر البرامج التي كانت مسموعة هي التمثيليات الكوميدية، وكانت مصر هي السباقة في إنتاجها، مثل برنامج ساعة لقلبك أداء فؤاد المهندس، وخيرية أحمد بمشاركة أمين الهنيدي، وكتابة عبد المنعم مدبولي، والتي اشتهرت خيرية أحمد فيها بترداد جملة "محمود أنت زعلان يا حبيبي" .كذلك برامج أبو رشدي (حكمت محسن) القصاص الشعبي، ومعه مجموعة من كبار الفنانين السوريين مثل أنور البابا (أم كامل)، وفهد كعيكاتي، وتيسير السعدي، أشهرها كانت سلسلة مذكرات حرامي، وصندوق العجائب.

وكان للمسلسلات والبرامج الكوميدية الإذاعية نكهتها الخاصة، لأنها توحّد الأذواق، وتساهم في لمّ شمل العائلة بأكملها، ممّا يزيد ذلك في الألفة الأسرية. وانتقلت البرامج الإذاعية من السمعي إلى البصري، بعد أن تقرر افتتاح تلفزيون الإقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة في توقيت افتتاح تلفزيون الإقليم الجنوبي نفسه بتاريخ 23 تموز- أغسطس 1960، وظهرت صور المذيعين والممثلين على الشاشة الفضية.

كنت تواقاً لمعرفة أخبار الفنانين، ومتابعة الأعمال الدرامية الأولى على التلفزيون، الذي كان يفتتح بثه عند الساعة الرابعة بعد الظهر، ويغلقه عند الساعة الثامنة مساءً. تمددت بعدها ساعات البث تباعا.

طلبت من إدارة مدرستي الإعدادية أن تدعم إنشاء فرقة مسرحية، وبدأنا بتقديم بعض الإسكتشات والتمثيليات الصغيرة، حسب عمرنا، كنت في الصف السابع، ومعي في الفرقة من هم في الصف الثامن والتاسع. وأذكر أن فرقتنا حضرت عرضاً مسرحياً قدمه طلبة الثانوي من التجهيز الأولى، وبعد عرض فرقتهم تعرفت إلى ياسر العظمة الذي كان يدير الفرقة، ودعوته لمشاهدة عرضنا.

بعد حصولي على شهادة الكفاءة (الشهادة الإعدادية) اشتركت مع صديق لي هو (خلدون الملك)، في إنشاء نادٍ للتمثيل، واستأجرنا قبواً في حارة شرف مقابل سينما الحمراء (وكانت سينما جديدة في ذاك الوقت)،

كانت الإذاعات في الخمسينات الشغل الشاغل للمجتمعات العربية، لعدم وجود التلفزيون، وبالتالي كان المذيعون، ومقدمو البرامج نجوماً في الأوساط العربية. وأكثر البرامج التي كانت مسموعة هي التمثيليات الكوميدية.

بدأنا بتقديم بعض الإسكتشات والتمثيليات الصغيرة، وأذكر أن فرقتنا حضرت عرضاً مسرحياً قدمه طلبة الثانوي من التجهيز الأولى، وبعد العرض تعرفت إلى ياسر العظمة الذي كان يدير الفرقة

لكن لم ننجح في تنشيط النادي، فكيف لأولاد صغار أن يفتتحوا نادياً للتمثيل؟ الأولى بنا أن نتعلم ألف باء التمثيل، قبل إدارة وتعليم، وإعطاء الملاحظات للأعضاء الجدد في الفرقة، أسهم جهلنا، وصغر أعمارنا في قلّة عدد المنتسبين ما أثّر سلباً على استمرارية مشروعنا، فما كان منا إلا التوقف، والعودة إلى دروسنا.

الانفصال: تراكم استياء كبير

لم تدم الوحدة طويلاً، ففي صباح يوم 28 سبتمبر- أيلول 1961 سمعنا البلاغ الانقلابي رقم واحد الذي طال انتظاره "كحلم للمتضررين من قيام الوحدة، ومن أهالي الموقوفين في سجون السرّاج"، يعلن الانفصال عن الإقليم الجنوبي، وعودة سوريا إلى أحضان شعبها. طبعاً لم يولد الانقلاب من لا شيء، وإنما من تراكم استياء كبير في صفوف أعضاء مختلف الأحزاب السورية، أساسها حرمانهم من مزاولة حياتهم السياسية المعتادة، من خلال تقليص عددهم عملاً بتعميم قانون حظر الأحزاب في مصر قبل الوحدة. كما ساد الركود الاقتصادي، بسبب قوانين تحديد الثروات الزراعية التي كانت مطبقة في مصر، ولم تكن مناسبة لسوريا، هذا بالإضافة إلى بطش المكتب الثاني بالمواطنين السوريين الذي كان يديره عبد الحميد السراج، ويساعده عبد الوهاب الخطيب، فقد استقوى الخطيب لدرجة أنه وصل ليشير فقط بإصبعه إلى أحد خصومه، ليتم اعتقاله بتهمة الشيوعية، أو الإخوانية.

ينحدر عبد الوهاب الخطيب من بلدة دير عطية، وقد اختار مع أختيه ووالدته الأرجنتينية حي سوق ساروجة – حارة القولي مكاناً لإقامته، بعد توليه منصبه، ليكون اليد الضاربة للسراج. كان الخطيب بالتوازي مع جبروته وسلطته شاباً جذاباً، وكان يتنافس مع بعض شباب الحي الوسيمين على جذب الفتيات، وكان أخي أشد المنافسين له بالهيبة والأناقة، فقد كان موسيقياً ويدير نادياً فنياً للتمثيل، إلى جانب عمله في التعهدات، فوقع الخلاف بينه وبين عبد الوهاب الخطيب وتصادما. عبد الوهاب يهابه الجميع، ويكرهونه في نفس الوقت، بينما يقف أهل الحي إلى صف أخي كونه من (أصل الحي). تعالت أصوات الخصمين، فقام أخي بصفعه، هنا حدثت المصيبة الكارثة!! يا ويلاه! شخص مدني يصفع رجل أمن، ومن؟؟ الرجل الثاني في المباحث!

لم يستطع اعتقاله مباشرة، لقيام أهل الحارة بحمايته. فاتهمه الخطيب بالشيوعية، وأنه يشتم عبد الناصر طوال الوقت. بدأت المداهمات وبيوت الحارة بحثاً عن الشيوعي الهارب من وجه العدالة،

حارة القولي في حي سوق ساورجة الدمشقي العريق حيث ولد ونشأ مأمون البني

إلى أن اضطر للسفر إلى الكويت، ولم يعد إلا بعد حدوث الانفصال. في الوقت الذي هرب فيه عبد الوهاب الخطيب مع السراج إلى مصر، بعد اتهامه بتعذيب وقتل، وتذويب فرج الله الحلو سكرتير الحزب الشيوعي اللبناني بالأسيد في أحد أقبية المكتب الثاني في دمشق.!

في الوقت التي اشتهرت فيه مصر بندّاباتها اللواتي كنّ يُستأجرن للصراخ والعويل، وندب الميت والبكاء عليه. كان في سوريا مرددون يمتهنون الصراخ والعويل في المظاهرات منادين بشعارات رنانة جاهزة لكل المناسبات ضدّ، أو مع حسب الحدث، لينبري هؤلاء، ويندسوا في مسيرة دمشق يوم 28 سبتمبر- ايلول 1961 تأييداً للانفصال، وتحديداً بعد بثّ البلاغ رقم واحد، حين خرج الانفصاليون يؤيدون الانقلاب، كسر أحدهم الواجهة البلورية لشركة طيران الجمهورية العربية المتحدة في ساحة الحجاز، وكنت شاهداً على ذلك، وأخرج تمثالاً نصفياً لعبد الناصر، وثقب منتصف رأسه، وأدخل عصا المكنسة فيه، ومن ثم حمله، وترأس المسيرة التي جالت شوارع دمشق تندد بالدكتاتور عبد الناصر، وتنادي بسقوطه. أثناء ذلك كان المشير عبد الحكيم عامر قائد الجيش، ووزير الحربية للإقليمين الشمالي والجنوبي، يحاول في مكان احتجازه في الأركان بدمشق أن يجد طريقة للتفاهم مع الانقلابيين، في الوقت الذي بثّ عبد الناصر تطميناته للجمهور، على أن الانقلاب محدود، وبناءً عليه قد أصدر قراره بسحق فوري للمتآمرين، فلبى قائد الشرطة العسكرية بدمشق نداء الرئيس جمال، وأنزل قواته على الفور لشوارع دمشق، ضدّ قوات الأمن التي كانت مؤيدة للانقلاب، فاحتلت قوات الشرطة العسكرية مبنى الإذاعة والتلفزيون، وتوزع بعضها في شوارع العاصمة، وحاصرت إحداها مسيرة التأييد للانفصال، والتي وصلت للتو إلى ساحة عرنوس في الوقت الذي أُذيع البلاغ المشهور رقم 9 وهذا نصه:

"إن القيادة العربية الثورية للقوات المسلحة التي دفعها الشعور بالخوف على وحدة الصف العربي وحماسها للقومية العربية وتأييدها لها دفاعاً عن مقوماتها تعلن للشعب العربي الكريم أنها لا تنوي المس بما أحرزته القومية العربية من انتصارات، وتعلن أنها لمست عناصر مخربة انتهازية تريد الإساءة لقوميتنا، فقامت بحركتها المباركة تلبية لرغبة الشعب العربي، وآماله وأهدافه. وإنها عرضت قضايا الجيش وأهدافه على سيادة المشير نائب الرئيس والقائد العام للقوات المسلحة الذي تفهّم أمور الجيش على حقيقتها، واتخذ الاجراءات المناسبة لحلها لصالح وحدة وقوة القوات المسلحة والجمهورية العربية المتحدة. وقد عادت الأمور العسكرية الى مجراها الطبيعي اعتماداً على ثقتها بحكمة القائد العام للقوات المسلحة، وقائد الجيش الأول اللذين يحققان أهداف القوات المسلحة، والجمهورية العربية المتحدة".

اضطر أخي محمد للسفر إلى الكويت، هربا من اتهامه بالشيوعية، بعدما صفع عبد الوهاب الخطيب، مساعد عبد الحميد السراج، والرجل الثاني في المباحث، إثر شجار وقع في الحي.

خرج الانفصاليون يؤيدون الانقلاب، وكسر أحدهم الواجهة البلورية لشركة طيران الجمهورية العربية المتحدة في ساحة الحجاز، وأخرج تمثالاً نصفياً لعبد الناصر، وثقب منتصف رأسه، وأدخل عصا المكنسة فيه!

وبالعودة لمسيرة التأييد للانقلاب ضد الوحدة، فبمجرد إذاعة هذا البلاغ، وبعد حصار عناصر الشرطة العسكرية، وانسحاب الشرطة المدنية من مواقعها، نزع حامل تمثال عبد الناصر عصا المكنسة من رأسه، وأعاد رفعه محيّياً القائد ناصر بطل الوحدة.

من أفشل الوحدة؟

بعيداً عن المهاترات بين الخصمين...! الوحدويين والانفصاليين، فإن كلا الطرفين كان يُحمّل الآخر سبب فشل الوحدة. أرى:

ليته تمّ التوافق على الاقتراح في الاجتماع الأول للمجلس العسكري السوري مع الرئيس عبد الناصر عام 1958 حين اُقترح اتحاد فدرالي، كخطوة أولى، لما قبل الوحدة الاندماجية، فلو حصل ذلك كان من الممكن أن يُتاح الوقت اللازم لدراسة طبيعة البلدين، وأن تُؤخذ القرارات الأنجع لكل بلد، حسب طبيعته الجغرافية والسكانية، لا حسب الشعور العاطفي الذي أثّر سلباً، حتى على الأشخاص الذين كانوا وراء قرار قيامها. بالإضافة إلى سرعة إعلان قيام الوحدة، قبل دراسة الطبيعة الديموغرافية للبلدين، فمصر كان تعدادها ثلاثين مليون نسمة، بينما كان عدد سكان سوريا ما ينوف على أربعة ملايين نسمة بقليل، وكان اقتصادها أفضل بمرات من اقتصاد مصر التي كانت بدورها خارجة من حرب السويس قبل سنتين فقط.

فشلت الوحدة لأسباب كثيرة منها الاقتصادية مثلاً، فقد تطلبت القوانين الجديدة دمج الشركات الحكومية للقطرين، وتوحيد رأس المال بين إداراتها، فخسرت سوريا من جراء توحيد رأسمال مال شركاتها أموالها التي كانت حينها مزدهرة. بالإضافة إلى القضاء على حرية الصحافة، وتنوع الأحزاب السياسية التي ساهمت في الترويج للحريات العامة وتنميتها قبل قيام الوحدة، وتم الإجهاز عليها بعدها، ممّا عزا بالمواطن السوري، لأن يشتكي من ضغوطات سلبيات قوانين الوحدة، أو من انخراط مجموعات أمنية في الإساءة للوحدة، في الوقت الذي تُظهر فيه نفسها على أنها تدافع عنها. مثل قيام عناصر عبد الحميد السراج بكمّ أفواه الناس، وضرب بيد من حديد على كل من تسوّل له نفسه أن يبدي رأياً معارضاً لأيّ قرار، أو إجراء معين، بحجة الدفاع عن الوحدة، وهذا كان سبباً هاماً في الإسراع بقيام الحركة الانقلابية، ونجاحها في وأد الوحدة، التي كانت حلماً لأيّ مواطن عربي فضلاً عن السوري والمصري.

فواز حـــداد

سهام ترجمان امرأة من دمشق

ولدت سهام ترجمان في كانون الأول عام 1932 في حي العمارة وكانت الدنيا "تلج". وإذا شئنا إحداثيات ما قبل ولادتها ومابعدها، فقد حملت بها أمها في حارة "قولي" وأرضعتها في "المناخ". وسكنت عدة بيوت آخرها في حارة "القرماني"، الواقعة في سوق ساروجة. ثم انتقلت مع أسرتها للإقامة في حي "السبكي".

تعتبر سهام ترجمان حارة "القرماني" حارتها منها كانت إطلالتها على الحياة ومدينتها دمشق. اليوم ليس لهذه الحارة وجود، لكن وجودها محفور في ذاكرتها، وإذا تركنا سهام ترجمان تدلنا إليها، فلن تبخل علينا بتفصيل واف وبنكهة شامية تقليدية.

(تبدأ نزلة القره ماني من سوق ساروجة "مواجه" حارة قولي. حارتنا، حارة القره ماني لها قوس، على كتفها الأيمن دكانة عمي "أبو راشد" البقال كامل الأحمدي وأخيه مظهر الأحمدي. حارتنا، تنتهي بحمام القره ماني وبدكانة مجيد الفوال وسوق العتيق على "ايدك اليمين" وتنتهي من "ناح" بيت المرتضى وبيت ظريف أفندي على ايدك الشمال بخان الزيت والقطران من "ناح" بيت الدالاتية، ومن خان الزيت "بتنفد" على سوق العتيق وسوق التبن والزرابلية وسوق الهال عند السكة. وحارتنا "بتنفد" قبل خان الزيت على ايدك الشمال على سوق ساروجة عند حمام الخانجي وقصر العظم وطلعة سوق الهال وحارة السمانة).

تستقيم الحارة بكل جمالها وبهائها في كتابها "يا مال الشام"، ومعها تستعيد الكاتبة مدينتها دمشق القديمة بحاراتها وأزقتها ودخاليجها وبيوتها وعائلاتها وحماماتها وأزهارها وورودها وأمثالها الشعبية وطبخها ونفخها...كأن لم يصب تقاليدها وعاداتها النسيان، ومعالمها شره التحديث العشوائي والنهب المنظم.

هذه واحدة من أهم المآثر التي اجترحتها سهام من أجل دمشق. أبقتها على قيد الذاكرة وفي الأذهان، لم تغير حللها بعد، أو ينال الوهن من صورتها العتيقة. بعبارة وجيزة، لا يمكن الفصل بين سهام ترجمان ودمشق. سهام، امرأة هي مدينة. وكأنها من فرط تمثلها لمدينتها، ما جاءت إلى الدنيا ـ كما كتبت ـ إلا لتكون دمشقية.

تعلقت طفولتها بأحياء الشام الرحبة والضيقة، بالميدان والشاغور والقيمرية والقنوات وسوق ساروجة والعمارة وباب توما والقصاع والشيخ محي الدين والمهاجرين... وصولاً إلى أزقة قولي، الورد، الشالة، السمانة، ستي زيتونة، العقيبة، بوابة الآس، السبع طوالع، النوفرة، بحرة الدفاقة، المناخلية، باب سريجة. تلقت دراستها الابتدائية في مدرسة "زبيدة" بحي الصالحية. ونالت الشهادة الثانوية عام 1950. دخلت قسم الفلسفة في كلية الآداب بجامعة دمشق وتخرجت عام 1954. وتأثرت خلال دراستها الجامعية بعدد من الأساتذة والمفكرين، كالأستاذة جولييت عويشق، والأساتذة جميل صليبا وبديع الكسم وعادل العوا وعبد الكريم اليافي وسامي الدروبي وحافظ الجمالي وعبد الله عبد الدايم وأنطون مقدسي وشاكر مصطفى... هؤلاء الأعلام كانوا الأساتذة في كلية الاداب، فما بالنا في كلية الطب مثلاً؟

لا يمكن الفصل بين سهام ترجمان ودمشق. سهام امرأة هي مدينة. وكأنها من فرط تمثلها لمدينتها، ما جاءت إلى الدنيا ـ كما كتبت ـ إلا لتكون دمشقية.

كانت أول امرأة عربية سورية تعمل مراسلة حربية في جبل الشيخ وخط بارليف بمصر، وتؤرخ بطـــولات الجنود في حرب تشرين عام 1973.

بعد تخرجها من الجامعة السورية، دخلت الحياة العامة، وعملت في الصحافة، ما يزيد عن ثلاثين سنة وكانت رئيسة تحرير بارزة في مجلة "الجندي". وبالتالي اعتبرت أول صحفية سورية بعد ماري عجمي في النصف الثاني من القرن العشرين.

حررت في المجلة صفحة المرأة تحت عدة عناوين لهذا الباب: (طريق السعادة ـ هذه الصفحة لك يا سيدتي ـ للمرأة ـ خاص بحواء ـ آدم وحواء ـ جنة آدم ـ مجلة الأسرة ـ الأسرة ـ المرأة). لم يقتصر نشاطها الصحفي على الأسرة والمرأة، بل قامت بتحقيقات سجلت فيها وقائع وأحداث ومعارك حروب مصر وسورية ضد إسرائيل، وقابلت المقاتلين تحت قصف المدافع في جبهات القتال السورية، وكتبت عن الطيارين والشهداء وجرحى وأسرى الحرب. وكانت أول امرأة عربية سورية تعمل مراسلة حربية في جبل الشيخ وخط بارليف بمصر، وتؤرخ بطـــولات الجنود في حرب تشرين عام 1973. وإذا كانت قد خرجت بنفسها سالمة من الحرب، لكنها ستنال منها، باستشهاد زوجها النقيب فؤاد محفوظ في الجبهة السورية، فكتبت رسالة مؤثرة إلى الطيار الإسرائيلي الذي قتله، أثارت ضجة عربية وعالمية.

خلال عملها الصحفي، كلفت إبان الوحدة بين سورية ومصر 1958 ـ 1961 بمهمات إعلامية عسكرية للكتابة عن سورية في المجلات والصحف المصرية، وعن مصر في المجلات والصحف السورية. كما عينتها دار "أخبار اليوم" في مكتبها الصحفي مراسلة لها في دمشق، ونُشرت تحقيقاتها المصورة في مجلات آخر ساعة والجيل وروز اليوسف وصحيفة أخبار اليوم. وخلال عملها الوظيفي أيضاً، تسلمت مناصب عديدة منها: مدير التخطيط في الإدارة السياسية، ومجلة جيش الشعب، ومخططة للبرامج الإعلامية والثقافية، ورئيسة تحرير مجلة "فلاش" باللغة الإنجليزية... كما عملت مذيعة لصوت القوات المسلحة في الإدارة السياسية بوزارة الدفاع حتى عام 1992، قدمت خلالها العديد من البرامج الإذاعية لإذاعة دمشق منها: (المرأة ـ الوجه الآخر ـ فنجان قهوة ـ الحقيبة الدبلوماسية). حضرت عدداً من المؤتمرات الدولية والرسمية في فرنسا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا وفنلندا ومثلت سورية في الندوات والدراسات الجامعية العليا حين رشحتها الخارجية السورية

لمنحة "برنامج هيوبرت همفري". وحصلت على شهادة من جامعة مينيسوتا، ومعهد الثقافة الدولي في نيويورك. وقد حضرت عدة مؤتمرات عربية ودولية كمؤتمر الأدباء العرب في سورية 1979، ومؤتمر المرأة العالمي في هلسنكي 1969. وبعد انتهاء خدمتها في وزارة الدفاع، دعيت لإلقاء محاضرات على المستوى المحلي والعربي والدولي في دمشق محاضرة بعنوان"روح الشام في الأربعينات"، ومحاضرة في لندن بعنوان "يا مال الشام". أما في باريس فكان عنوان المحاضرة "لوحات شعبية شامية في باريس".

***

كتبت سهام ترجمان خمسة كتب تنوعت بين الفولكلور والخاطرة الأدبية والسيرة والتاريخ والتحقيق والكتابات القومية والوطنية.

يعتبر كتابها "يا مال الشام"، كتاباً فريداً في موضوعه وفي طريقة تناوله. وهو أهم ما كتبته، والأقرب إلى قلوب القراء، وأيضاً إلى قلب مؤلفته التي قامت بكل وفاء واندفاع وحماسة بتعريف الناس بماضي مدينتها؛ دمشق القديمة. من خلال هذا الكتاب بالذات تعرَّف عليها الناس، فحملوا لها كل تقدير وإعجاب. استحوذ الكتاب على اهتمام الكثيرين من المثقفين العرب والأجانب ومازال الاهتمام به يتنامى على المستوى الشعبي, طوال أكثر من خمسة وأربعين عاماً؛ منذ طبعته الأولى إلى طبعته الخامسة الموسوعية في ثلاثة مجلدات. وقد ترجمته إلى الإنجليزية المستشرقة الأمريكية البروفيسورة د. أندريا رو عالمة الأنتروبولوجي والسوسيو لوجي. جامعة سيراكوز، وصدر تحت عنوان "ابنة دمشق" وعُدَّ واحداً من أفضل عشرة كتب ترجمت ونشرت عام 1994. كما قام المستشرق ما يكل ميركو ششينكي بترجمته إلى البولونية. وترجمت منه بعض النصوص إلى الأسبانية.

ولعل أكثر من استفاد من كتابها وغزارة معلوماتها ودقة رصدها لعادات وتقاليد البيئة الشعبية الدمشقية، بعض صانعي المسلسلات التلفزيونية التي صورت تاريخ دمشق الاجتماعي والسياسي، وحصدت رغم تقصير غالبيتها على نجاح قَلَّ نظيره في الوطن العربي. وعلى التأكيد من دونها لما استطاع مخرجو هذه الأعمال، أن يتصوروا مناخات الحارة الشامية، وإن تلاعبوا بمصداقية تاريخها، ولا أن يكون للدراما السورية هذه الأرضية المشبعة بالشخصيات، وإن بولغ بتصويرها. ومن المفارقة المؤلمة، ورغم العثرات الكبيرة، انه لولا "يا مال الشام" لما

يعتبر كتابها "يا مال الشام"، كتاباً فريداً في موضوعه وفي طريقة تناوله. وهو أهم ما كتبته، والأقرب إلى قلوب القراء

أكثر من استفاد من غزارة معلوماتها ودقة رصدها لعادات وتقاليد البيئة الدمشقية، بعض صانعي المسلسلات التلفزيونية التي صورت تاريخ دمشق الاجتماعي والسياسي، وحصدت رغم تقصير غالبيتها نجاحاً قَلَّ نظيره في الوطن العربي.

شهدت هذه الأعمال النور. لم تكن اللوحات المبذولة في الكتاب مرسومة بأناقة ساكنة مثل طبيعة صامتة، وإنما مصورة تصويراً لا يقل عن كاميرا حاذقة وذكية، تنتقل بخفة ورشاقة من منظر إلى منظر، ومن حي إلى زقاق. وتتجول في البيت الدمشقي، فتصعد من أرض الديار إلى الفرنكة ومنها إلى السطح. كاميرا تعرف كيف تلتقط التفاصيل. لا تهمل عروق الياسمين، ولا دالية العنب الزيني، وأوراق الخميسة، وخشبات الدرابزين المسوس، وحشيشة المي، وأزهار الأضاليا، وأشجار الأكيدينيا، والليمون الحامض والحلو والكباد.

***

إذا كانت دمشق قد منحت سهام ترجمان نسغ حياتها، وأضفت عليها الروح والهدف والمعنى. فهي بالمقابل منحت دمشق زهرة شبابها وجهد عمرها، وكرست لها كتاباً وثق حاراتها وبيوتها ومختلف مظاهر الحياة فيها، ليس بأكاديمية جافة، وإنما بريشة مضمخة بشغف مشبوب وحنين جارف لا يرتويان. ريشة لا تنقصها الحيوية والتألق، لا تفوتها نكهة التفاصيل الصغيرة، وبلمسات رشيقة وبارعة لا تخلو من سحر. ويمكن القول، نادراً ما نعثر على كتاب مثل "يا مال الشام"، كتاب لا يتكرر، إذ يختم بظهوره قصة كانت تنتظر من يكتبها. "يا مال الشام" باتساعه وشموله ودقته، يكاد يغطي موضوعه، ولا يترك لغيره شيئاً يضيفه إليه، سوى تنويعات عليه. وقد كان لسهام ترجمان دور كبير في نشوء تيار يتعشق دمشق إلى حد الإفراط, وكانت دمشق حسب الكاتبة، مدينة لها سر إلهي مقدّس، وسحر تاريخي روحاني صوفي حضاري عربي. ولقد حاول الآخرون شعراً، ما عبرت عنه بنثر، كان أحياناً أجمل من الشعر بصدقه ورهافته. ومن حسن الحظ، أن الله حبا دمشق بعاشقة مثلها، أحبت دمشق حباً أعمى، لم تفارقه حدة البصر وشدة التبصر.

رحلت سهام ترجمان عن دمشق، وبنفسها منها أشياء واشياء، غادرتها تحمل المرارة، غادرتها مدينة محتلة، يرتع فيها العسكر والشبيحة والمخابرات، وبمرمى البصر يربض في القصر الجمهوري مجرمون ولصوص. دمشق تخوض امتحان البقاء على قيد الحياة، رغم الموت الذي يعيث فيها، والقتلة الذين يعبثون فيها. مهما طال الوقت، ومرّ من الغزاة، فدمشق باقية، تنهض من الرماد، لؤلؤة مكنونة في سورية التي لا تموت ولا تركع.

وجوه منسية

إنصاف البرعي
أول قاضية أحداث في سوريا

بقلم: خالد الأحمد*

شاءت الأقدار أن تعيش في سوريا بعد اقترانها بالسياسي والمحامي السوري المخضرم "سليم عقيل" وهو الاقتران الذي جسد روح الوحدة بين سوريا ومصر بداية بزوغها.

القاضية إنصاف البرعي

عقد قران إنصاف البرعي في حلب

ذات يوم كانوني من عام 1958 ضجت أرجاء القصر العدلي في حلب بالتصفيق وقوفاً بعد إعلان تولي المحامية "إنصاف البرعي" منصة القضاء وتسلمها محاكم الأحداث بعد أن أصدر مجلس القضاء الأعلى في الإقليم الشمالي موافقته على تعيينها لتصبح أول امرأة تتولى هذا المنصب في البلدان العربية في 14 نوفمبر من ذلك العام، ولتسبق بذلك ما يعرف بأول قاضية عربية وهي القاضية "زكية اسماعيل حقي" التي تولت منصبها كقاضية في فبراير من عام 1959 أي بعد شهرين من تولي القاضية المصرية التي شاءت الأقدار أن تعيش في سوريا بعد اقترانها بالسياسي والمحامي السوري المخضرم "سليم عقيل" وهو الاقتران الذي جسد روح الوحدة بين سوريا ومصر بداية بزوغها.

ورغم أن في مدينة حلب آنذاك محامين أكفّاء إلا أنها كانت المحامية الوحيدة من بنات جنسها واتسمت بالذكاء والنبوغ فلمع اسمها وازداد لمعاناً بنجاحها في معظم القضايا التي وكلت للمرافعة فيها كما قالت مجلة (المصوّر) المصرية في تقرير صحفي نشر عنها بتاريخ 14 نوفمبر عام 1958

من السيدة زينب إلى حلب

وتنحدر "إنصاف عبد السلام البرعي" من أسرة مصرية فهي من مواليد منطقة الدواوين بحي السيدة زينب في القاهرة 1929 ووالدها كان أستاذاً للغة الانكليزية في مدارس القاهرة، درست في كلية الحقوق بجامعة القاهرة وتخرجت بدرجة جيد.

وروت رائدة الأعمال "فاتن عقيل" لكاتب هذه السطور أن والدتها رسبت في المرحلة الثانوية بمادة اللغة الإنكليزية للمفارقة رغم كون والدها أستاذاً لهذه المادة، ولكنها أكملت في دورة تكميلية فيما بعد ونجحت بعد أن حجزها والدها في المنزل لثلاثة أشهر تفرغ خلالها لتعليمها هذه اللغة التي برعت فيها فيما بعد إضافة إلى اللغة الفرنسية والعربية.

من القاهرة إلى حلب

بعد نيلها شهادة البكالوريا تزوجت "إنصاف البرعي" من ابن عمتها ودخلت إلى الجامعة وهي حامل بابنها البكر "توفيق" وتمكنت من اجتياز سنوات الحقوق الأربع واضطرت للانفصال عن زوجها بعد تخرجها، والتحقت بسلك المحاماة حيث تمرنت على يد أهم محامي القاهرة آنذاك وبدأت بمزاولة المهنة حيث افتتحت مكتبين أحدهما في القاهرة والثاني في مدينة بنها، وتسترسل محدثتنا قائلة إن اللقاء الأول الذي جمع والدتها بوالدها المحامي والسياسي "سليم عقيل" كان من خلال مؤتمر للمحامين العرب أقيم في القاهرة عام 1955 وهناك كان أول تعارف بينهما حيث كان والدي أعزبَ آنذاك ، وكان يردد مقولة أمام زملائه الذين كانوا يسألونه عن عدم زواجه إذا التقيت بإنسانة مثل الأستاذة إنصاف فسأقبل بالزواج منها، ونشأت حالة صداقة ومراسلات بريدية بينهما تبادلا فيها أفكارهما السياسية وطموحاتهما ومشاعر الود والإعجاب.

بعد سنتين أي في عام 1957 كان هناك مؤتمر للمحامين العرب في دمشق حضرته "إنصاف البرعي" وتقول ابنتها أن والدها عرض على زوجته المستقبلية آنذاك زيارة حلب لتتعرف على أهله وبالفعل سافرت معه إلى مدينته وسُرّت جداً بالتعرف على عائلته، وتتابع محدثتنا: "بعد عودتها إلى مصر اتصل والدي بعمي الإعلامي نذير عقيل الذي كان يعمل في إذاعة صوت العرب بالقاهرة وأخبره برغبة الاقتران بالمحامية إنصاف الرعي فقام بزيارة أهلها وإتمام الخطوبة لعدم تمكن والدي من السفر إلى القاهرة وتم عقد القران والزواج بتاريخ 1958/1/7 أي بعد الوحدة بين سوريا ومصر التي أعلِنَت في الـ22 من فبراير في العام 1958، ونشرت الصحف والمجلات المصرية والسورية عن قصتهما باعتبارهما أول من حقق الوحدة بين البلدين على أرض الواقع.

أول قاضية للأحداث في الوطن العربي

بعد زفافها انتقلت "إنصاف البرعي" لتعيش في مدينة حلب مع عائلة زوجها

في زيارة للقدس الشريف

ورزقت ثلاثة أولاد " خالد " و"محمد " وأنا "آخر العنقود" وتضيف فاتن:

"بعد وقوع الانفصال بين سوريا ومصر عام 1961 باتت العلاقات بين البلدين صعبة للغاية وحُرمت والدتي من زيارة بلدها وأهلها لمدة 4 سنوات، وكان هذا الأمر صعباً للغاية عليها وعانت من وطأته النفسية... وبعد فتح الطريق بين سوريا ومصر سافرت إلى بلدها، وتروي محدثتنا أن والدتها لدى وصولها إلى أرض مطار القاهرة سجدت وقبلت الأرض تعبيراً عن اشتياقها لبلادها الذي طال.

وأشارت محدثتنا إلى أن والدتها كانت ثاني محامية تمارس هذه المهنة في سوريا ولكنها تمكنت من أن تكون أول قاضية للأحداث في الوطن العربي ، وهي المحاكم المختصة بالنظر في قضايا الأحداث القاصرين، أي من هم دون الثامنة عشرة

وفي العام 1972 ترشحت للإدارة المحلية في مدينة حلب بتشجيع من زوجها ولكنها لم تنجح لتتوظف بعدها في البنك التجاري السوري كمحامية له ولكن تم منعها من مزاولة المحاماة بشكل حر.

وروت فاتن أن والدها "سليم عقيل" تعرض لعدة اعتقالات نهاية السبعينات فكانت والدتها إلى جانبه دائماً وتسعى للإفراج عنه في كل اعتقال، ونجحت في كل محاولاتها إلا في اعتقاله الأخير في عهد حافظ الأسد عام 1980 الذي استمر حتى العام 1989 واستلمت والدتها خلال هذه الفترة مكتب والدها للمحاماة وكانت تقوم بالدعاوى والدفوعات وتقدم أسماء محامين من أصدقاء والدي، لأنها شطبت من نقابة المحامين ولكن كان لديها إصرار عجيب رغم الصعوبات والعوائق التي كانت تقف أمامها، وأشارت محدثتنا إلى أن والدتها كانت إنسانة قوية ومرحة جداً ككل المصريين المعروفين بخفة ظلهم، ونظراً لغياب الوالد المعتقل كان عليها أن تكون أماً وأباً في آن واحد، وأن تتعامل بصرامة وشدة مع أبنائها إلى جانب أنها كانت بمثابة عمود البيت والسند الحقيقي لكل فرد فيه من عائلة والدي الكبيرة.

* صحفي وكاتب سوري مقيم في الأردن

وجوه منسية

العالِم السوري الفيزيائي فؤاد الصعيدي:

عبقرية فذّة صدمت السوريين برحيلها المبكر

بقلم: ناصر الحموي

* حقق قفزات بحثية كبيرة، وحصل على الدكتوراه في الطاقة الإشعاعية
* التحق بجامعة ماريلاند عام 1963، ليدير بحثاً حول الأقمار الصناعية

لا تختلف حياة هذا العالم الفيزيائي، عن غيره من العلماء في عصرنا الحديث، لكن في قصة رحيله المبكر حكاية حزن تفترش القلوب، وتقيم فيها، ولا تغادرها أو تبرحها، وفي جبلة المدينة التي أنجبته، وشهدت ولادته عام 1934 ، لا يزال اسم العالم الفذّ، والنابغة الفريد فؤاد الصعيدي كالقنديل المضاء، يلهم الشباب والأجيال، ويضيء دروبهم بنور العلم، والبحث العلمي، فهما جناحا التحليق إلى مستقبل مشرق زاهر، والسبيل الأمثل للالتحاق بمستجدات العصر، كما يحفزهم على الإبداع والابتكار، وتقديم الأفضل عبر التزوّد بالعلوم الحديثة، وامتشاق أهمّ أسلحة، وأدوات العصر في صنع التقدّم والازدهار، وصياغة الحاضر والمستقبل .

فقد كان العالم البارز العبقري والمتميز فؤاد الصعيدي متفوقاً، منذ طفولته وحداثته في جميع دروسه ومقرراته، حتى إذا ما انتقل لدراسة المرحلتين الإعدادية والثانوية في ثانوية جبلة (مدرسة الشهيد محمد سعيد يونس) التي تأسست في عهد الرئيس الراحل شكري القوّتلي، ظهرت عليه إمارات النبوغ، وخاصة في المواد العلمية كالجبر، والهندسة والفيزياء، والكيمياء، والعلوم، وحقّق فيها تفوقاً لافتاً بدرجة امتياز .

التحق العالم فؤاد الصعيدي بصفوف الكلية الملكيّة للعلوم والتكنولوجيا، والطب في بريطانيا، وتخرّج عام 1956 متخصصاً في مجال الفيزياء، وحقق خلال دراسته الجامعية قفزات كبيرة، وإنجازات بحثية متنوعة، ليحصل على شهادة الدكتوراه من نفس الكلية، في مجال الطاقة الإشعاعية.

العودة إلى سوريا

فور حصوله على شهادته العلمية العليا، عاد الدكتور فؤاد إلى سوريا، ليردّ الجميل للوطن المعطاء، ويسهم بدوره وعلمه وتخصصه، في تطوير بلده، ومجتمعه وتحديثه، وينهض بالعلم والتعليم حاملاً مشعل الحضارة التي تقوم على مرتكزات البحث العلمي، والإبداع الفني والأدبي، مثلما تقوم على مرتكزات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، حيث تمّ تعيينه مديراً للبحث العملي والتقني.

لم يتوقف طموح الفتى صاحب العقل الراجح، والموهبة المشعّة، فطموحه الوثّاب المتوهّج كي يزيد من أبحاثه ودراساته حول الفيزياء دفعه مرة أخرى، لتطوير قدراته وعلومه ومعارفه، فغادر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1963 حيث كانت تلك البلاد منارة العلم والابتكار، وكان كّل مخترعي وعلماء العالم يتسابقون إليها، ليوسّعوا مداركهم، ويزيدوا من خبراتهم، حيث التحق د. الصعيدي بجامعة ماريلاند، ليكمل مسيرته العلمية والمهنية، ويدير بحثاً علمياً في أروقتها ومختبراتها ومعاملها، حول الأقمار الصناعية في مجال الإشعاعات، ويحصد بسخاء ما يكتنزه بيدر علومها وأبحاثها العلمية، وهو ما أنتج منه قامة علمية عملاقة، في ميدان تخصصه العلمي، ليعود مجدداً إلى الوطن، رافضاً أرفع المناصب العلمية التي عُرضت عليه في الخارج، ولينضم إلى كوكبة من فرسان العلم والفكر، والنابغين في ميادين المعرفة، المتميزين بعطائهم، وإبداعاتهم وإسهاماتهم التي كانت تحلم بتعزيز صدارة سوريا، في مسيرة التقدّم الإنساني، في الوقت الذي كانت تعيش فيه كوارث السياسة!

العلوم الجوية والإشعاع

بعد عودته إلى سوريا عام 1969 ، عُيّن العالم الفيزيائي فؤاد الصعيدي سكرتيراً للجنة الوطنية لـ IAMAP ومثّل بلده كعضو في لجنة العلوم الجوية، وكذلك عضواً في الجمعية الإقليمية العاملة على الإشعاع، كما كان في الوقت نفسه أستاذاً محاضراً في جامعة حلب.

رحيل في ظروف غامضة

شكّل رحيله المفاجىء عام 1969 عن عمر ناهز 35 عاماً، صدمة كبيرة، وخسارة فادحة في مدينة جبلة، وسوريا والوطن العربي والعالم، وعلى الرغم من كل الأقاويل والتفسيرات والتحليلات، للظروف الغامضة التي رافقت وفاته، إلا أن المساحة الزمنية القصيرة لمسيرة العالم الفيزيائي فؤاد الصعيدي تميّزت بالعطاء والإبداع، وكان الكثير من المراقبين والمتابعين لمسيرته المباركة يتوقّع أن يصبح أحد العلماء البارزين الذين سيسهمون في ركب الحضارة الإنسانية، فقد عمل بجدّ وصدق وإخلاص، على خدمة وطنه، وقدّم عصارة علمه، وفكره وتحصيله وأبحاثه ودراساته، في سبيل رقيه ونهضته، فكان من نخبة أبناء سوريا الأوفياء الذين تميّزوا بإبداعهم وعطائهم.

رحم الله العالم الفيزيائي الفذّ الخالد فؤاد الصعيدي الذي تفانى في دراساته وبحوثه، وأضاف بفكره وعلمه الكثير من الإنجازات، وكان يمتلك رؤية علمية ومعرفية، وقدرة على التحديق بالماضي، والإحاطة بالحاضر وقراءة المستقبل، وكان جّل همّه أن يساهم في بناء نهضة وطنه، ويحلم في أن يرى هذا الوطن يرفل في عزّة ومجد وإباء .

خديعة العصر

د. عبد العزيز ديّوب

انقلاب الثامن من آذار من عام 1963

أنهى آخر محاولة لقيام ديمقراطية في سوريا، وأفضى إلى تأسيس أبشع أشكال الدكتاتورية قمعاً وفساداً ودموية.

ربّما اختلفت الآراء حول تعريف تلك الفترة الطويلة من الزمن، والتي أتخمت قمعاً، وتنكيلاً ونهباً، في ظلّ شعارات تصحيح المسار، أي انقلاب حافظ الأسد الذي أسماه "الحركة التصحيحية". قام الأسد ببناء نظامه على تلك الكذبة التي تحوّلت إلى خديعة كبرى، بدليل أنها لاقت، ومازالت تلقى مؤيدين محلياً، وإقليمياً، وعالمياً، بغضّ النظر عن المصالح المتبادلة، مما يُضفي عليها هذه الصفة. ومن المؤكد بأن مفاعيل الزمن الطويل، وتراكماته قد ساهمت في تكريس هذه الخديعة التي تضرّجت بالدماء، وتكلّلت بالدموع.

لاشكّ بأن هذه الفترة قد طالت، ولكن ما يجري اليوم يشير بأنها إلى أفول، وهنا يتوجّب على النخب الثورية تناول أحداثها بكل ما فيها من تضليل، وفساد، وإجرام يفوق الخيال، عسى أن تشكل دروساً مستفادة حاضراً، ومستقبلاً، وخاصة للأجيال القادمة التي سيقع على كاهلها بناء دولة العدالة والمساواة، في ظلّ المواطنة، ضمن أطر ديمقراطية مدنية.

مرة أخرى أؤكد على أن مسيرة نصف قرن من معاناة الشعب السوري، وافتقاره إلى أدنى حقوق الإنسان، وحشره في قوقعة تضعه أمام خيارات محدودة، فإمّا أن يتعاون مع عصابة الإجرام، أو ينزوي، وإمّا الهجرة التي أضحت خياراً للكثيرين، من خيرة أبناء سوريا. نعم، لقد بدأت بكذبة، وتحوّلت إلى خديعة، وتُوّجت بمأساة، ولكنها سوف تنتهي بهزيمة هذه العصابة التي لم يشهد التاريخ مثيلاً لممارساتها الهمجية، وما اقترفته من عمليات تعذيب لا يطيقها بشر، حتى أصبح الموت حلماً في سجونها ومعتقلاتها. أناس يُحرَقون أحياء، نساء وأطفال يُغتَصبون أمام أعين ذويهم، حقول تُحرَق، وبيوت تُدمّر، وحيوانات منتجة تُقتل، وأراضٍ زراعية تُلوّث بالقصف، وأحياء تختنق من جرّاء استخدام الغازات السامة، كلّ هذا، وما خفي أعظم.

بداية لا بدّ من العودة قليلاً لمرحلة ما قبل العام 1963، حيث تكوّنت نواة ديمقراطية سورية من خلال تكريس دستور عام 1950، بصفته شاملاً، ومستوفياً للفعاليات الاجتماعية كافة، بشتّى مفاصلها الحياتية سياسياً واقتصادياً، على الرغم من تدخّل الجيش في الحياة السياسية السورية، وقد تمثّل بانقلاب حسني الزعيم على الشرعية البرلمانية، وتلته انقلابات أخرى كان آخرها انقلاب الشيشكلي، الذي استمر في الحكم من عام 1952 حتى عام 1954.

اتصفت تلك الانقلابات بأنها خلت من الدموية، والانتقامية والتوحّش، خلافاً لما جرى إثر انقلاب آذار عام 1963 الذي اتّصف بالدموية والطائفية، رغم شعارات الوحدة، والحرية، والاشتراكية التي رفعها. وعلى سبيل المثال اكتفت قيادة الانقلاب بإبعاد قادة الانقلاب السابق إلى السفارات السورية، من خلال تعيينهم كملحقين عسكريين فيها. هذا وقد اختتم الشيشكلي مرحلة حكمه، بصيغة وطنية توضحت بارتقائه إلى مستوى المسؤولية، حيث رفض سحق التمرّد الذي نشب في حلب، ولم يكن انقلاباً بمعنى الكلمة، نظراً لأن التمرد كان محدوداً عدّة وعدداً، بقيادة العقيد مصطفى حمدون البعثي، وقائد الكتيبة، والملازم أول محمد إبراهيم العلي معاونه، والبعثي أيضاً، حيث قاموا باحتلال إذاعة حلب، وأصدروا من خلالها البيان رقم واحد، وأمام هذه الحالة، فقد كان باستطاعة الشيشكلي سحق تلك المحاولة، ولكنه رفض اتّباع السلوك الدموي، فتقدّم باستقالته للشعب، وغادر البلاد.

الوحدة تقضي على الحرية!

عادت الديمقراطية إلى المجتمع السوري في العام 1954 متجلية بانتخابات برلمانية، وانتخاب القوتلي رئيساً للجمهورية، ولكن تلك العودة لم تلاق ترحيباً من دول كثيرة، ومنها إسرائيل التي ترفض قيام ديمقراطية مزدهرة على حدودها، وهي التي تعتز أمام الغرب بديمقراطيتها الوحيدة في الشرق الأوسط، وتحديداً ضمن مجتمعات متخلفة تدّعي أنها تبغي رميها في البحر، مستندة على ما يُذاع في الإعلام المصري الديماغوجي وغيره، ولذلك جرى تشجيع بعض الضباط بشكل، أو بآخر على تحدي تلك الديمقراطية الهشّة اعتماداً على ركوب موجة المدّ القومي الذي أجّج شعلته الرئيس عبدالناصر، وجاءت النتائج متوّجة بالوحدة مع مصر، ولكن بشروط إذعانية، أهمها حلّ الأحزاب السياسية في سوريا، وقد كانت تلك الخطوة التي قبل بها السوريون بداية لمرحلة دكتاتورية، تبوأت الأجهزة الأمنية فيها سدّة الحكم، برئاسة عبد الحميد السرّاج الذي مارس الكثير من الأساليب القمعية والإجرامية في آن واحد!

كما صدرت، خلال مرحلة الوحدة التي دامت ثلاث سنوات ونيف مراسيم الإصلاح الزراعي التي أدّت إلى تفتيت الرقع الزراعية إلى مساحات صغيرة، ومبعثرة يصعب استخدام المكننة الزراعية فيها، خلافاً لما قبله، حيث أخذت الزراعة شكل الشركات الزراعية ذات المساحات الشاسعة، وعلى سبيل المثال شركة (أصفر ونجار) في الجزيرة السورية، حيث بلغت تقنياتها أنها استخدمت الطيران الزراعي والمرشّات العملاقة.

كما صدرت مراسيم التأميم لشركات ومعامل، دون الإحاطة بتداعياتها، من حيث الإدارات الجديدة التي تميزت بعدم أهليتها، مما أدى إلى تحقيق خسائر اقتصادية جمّة، نتيجة الفشل في إدارتها، وكانت تلك النتائج من أهم الأسباب، لقيام انقلاب عسكري في 28 أيلول من العام 1961 علماً أن الانقلابيين قد أتاحوا المجال للسياسيين للعودة إلى نشاطهم.

انقلاب البعث: لا وحدة ولا حرية!

وفعلاً، فقد جرت انتخابات حرّة أفضت إلى برلمان انتخب الرئيس ناظم القدسي، وخلال تلك الفترة عادت الصحف والمجلات إلى الصدور، وكادت الحياة الديمقراطية أن تعود

إلى عهدها، ولكن انقلاباً دموياً حدث، صبيحة الثامن من آذار من العام 1963 لينهي آخر محاولة لقيام ديمقراطية في سوريا، ويفضي إلى تأسيس أبشع أشكال الدكتاتورية قمعاً وفساداً ودموية. قاد الانقلاب مجموعة من الضباط الناصريين والبعثيين، وقد تمثل الناصريون بالفريق محمد الصوفي الذي تبوّأ منصب وزير الدفاع، واللواء راشد قطيني الذي أصبح رئيساً للأركان، وتمثل البعثيون بالعقيد محمد عمران، والمقدم صلاح جديد، والمقدم عبدالكريم الجندي، والرائد حافظ الأسد، وهؤلاء شكّلوا اللجنة العسكرية، خلال وجودهم في مصر، إبان الوحدة كضباط بعثيين مبعدين، والتحق بهم كل من العميد أمين الحافظ، والرائد سليم حاطوم، والنقيب محمد رباح الطويل وغيرهم .

كان الاتفاق بين هؤلاء الضباط ينص على القيام بانقلاب عسكري على حكم الانفصال، والعودة بسوريا إلى دولة الوحدة، ولكن ضباط اللجنة العسكرية نقضت الاتفاق، وظهر سلوكها واضحاً، من خلال المراوغة على ذلك، مما استفزّ الضباط الناصريين، ودفعهم للقيام بمحاولة انقلابية فاشلة في 18 تموز من العام 63 بقيادة العقيد جاسم علوان، وقد جرى إحباطها بشكل دموي، حيث تمّ إعدام عدد من الضباط ميدانياً، واعتقال بعضهم الآخر، ليصار إلى تسريح حوالي 2000 ضابط من خيرة الضباط المهنيين.

اختفاء حافظ في لندن

ولسدّ الفراغ جرى استدعاء عدد كبير من ضباط الاحتياط، وأغلبهم من المعلمين، مما أفقد الجيش توازنه القيادي، وأضعفه قتالياً، وهذا ما أفضى إلى نكسة 1967 إضافة إلى خيانة قائد سلاح الطيران حافظ الأسد، والتي لاحت بدايتها منذ الصف الثاني من العام 1963 وذلك بُعيد تسلّم اللجنة العسكرية تقاليد الحكم منفردة وإقصاء الناصريين، حيث أرسلت عام 1965 وفداً عسكرياً إلى بريطانيا، بهدف تنويع السلاح السوري، من خلال عقد صفقة شراء سلاح منها، وكان حافظ واحداً من أعضاء الوفد، وفي اليوم الثاني لوصوله فقد لمدة ثلاثة أيام، دون الإبلاغ عن مكانه، ولدى عودته والتحاقه بالوفد تذرّع بأنه التقى مصادفة بواحد من أقربائه، والذي دعاه إلى منزله، ليقيم فيه تلك المدة التي غابها .

عاد الوفد إلى سوريا، حيث قدّم رئيسه تقريراً عن المهمة، ونوّه فيه إلى غياب حافظ، وعليه قامت اللجنة العسكرية بإيفاد أحد أعضائها من النسق الثاني إلى لندن، للتحقق من تلك الواقعة، وهناك التقى مع الملحق العسكري السوري في السفارة السورية، والذي بدوره قام بتحقيق عميق، توصّل من خلاله إلى أن حافظ قد كان على متن باخرة بريطانية، برفقة أدميرال البحر البريطاني نيلسون وزير استخبارات البحرية، مما يشير إلى ارتباطه، أو بالأحرى تجنيده لصالح المخابرات البريطانية.

عاد عضو اللجنة العسكرية إلى دمشق، وتقدّم بتقريره للجنة العسكرية، والتي بدأت بالتحقيق مع حافظ الذي احتجّ، ونفى نفياً قاطعاً علاقته بالبريطانيين، وعندما جُوبه بتقرير الملحق العسكري السوري بدأ بتهديد اللجنة بقصف دمشق بالطيران، وقد كان آنذاك مسؤولاً عن الآمرية الجوية، وعلى الفور دبّ الخوف في نفوس أعضاء اللجنة وانتهى التحقيق بتقبيل الشوارب، واعتبار الأمر منتهياً، وكأن شيئاً لم يكن، فقد طُويت القضية لصالح حافظ.

اتّصف حافظ بشخصية مسالمة ووضيعة، فقد أوحى للجميع بأنه صديق وفي ووحيد، وحقيقة فقد كان أغلبية أعضاء اللجنة العسكرية والقيادة القطرية يعتقدون بأن حافظ صديق وفي لكل واحد منهم، في الوقت الذي كان فيه حافظ يخطط للانقضاض على منافسه الأول في اللجنة، وهو اللواء محمد عمران الذي يُعتبر مؤسس اللجنة، والأكثر شعبية بين الضباط العلويين، واستمر بالعمل الحثيث إلى أن تحقق مراده، بإبعاد عمران سفيراً إلى مدريد، هذا وقد قام حافظ شخصياً بقيادة السيارة التي أقلته إلى مطار دمشق، ومنه إلى إسبانيا.

أزمة ميشيل عفلق

في بداية العام 1964 كتب ميشيل عفلق الأمين العام للحزب مقالاً طويلاً في جريدة البعث بعنوان "حكم الحزب، أم حزب الحكم" توصّل في نهايته إلى الإجابة عن السؤال، بأن ما يجري في الواقع يؤكد بأن الحزب هو حزب الحكم، وبأن اللجنة العسكرية هي من تحكم سوريا، وعلى إثر ذلك انهالت التهديدات عليه، مما أجبره على مغادرة سوريا إلى لبنان، ليحلّ مكانه الأردني منيف الرزاز، ومن ثم إلى العراق، ليستقر فيها كأمين عام لحزب البعث العراقي، ولدى وفاته رفض حافظ دخول جثته إلى مسقط رأسه، كما رفض أيضاً دخول جثة أكرم الحوراني كمؤسس ثانٍ للحزب .

أمين الحافظ الضالة المنشودة

وجدت اللجنة العسكرية في العميد أمين الحافظ الذي التحق بها بُعيد انقلاب الثامن من آذار، بعد استدعائه من الأرجنتين حيث كان يعمل ملحقاً عسكريا في السفار السورية، وجدت فيه ضالتها المنشودة، فهو أعلى رتبة عسكرية، ومن حلب، ويتصف بالبساطة والشهامة، وعليه أسندت إليه وزارة الداخلية كنائب للحاكم العرفي، وعلى إثر فشل محاولة انقلاب تموز تمّ ترشيح الحافظ، لرئاسة مجلس الرئاسة "الجمهورية" علماً أنه رفضها في البداية مؤكداً على أنه رجل عسكري، وبعيد عن السياسة، ولكنه التزم أخيراً بقرار القيادة القومية.

في نهاية العام 1964 صدر مرسوم بترفيع بعض الضباط ترفيعاً استثنائياً إلى رتبة لواء، وهم صلاح جديد، وحافظ الأسد، وحمد عبيد، وسويداني الذي تسلّم رئاسة الأركان، وعبيد وزارة الدفاع، وذلك تمهيداً للقيام بانقلاب 23 شباط 1966 الذي كانت أولى قراراته تعيين حافظ الأسد وزيرا للدفاع، وقد أدرك الضباط الموالون لأمين حافظ بأن جديد والأسد يعملون على ذلك الانقلاب، وأعلموا الحافظ بذلك، ولكنه رفض التحقيق معهما ومع الموالين إليهما، باعتبارهم "رفاقاً بعثيين"كما كان يقول، وباعتباره رفيقهم وقائدهم عسكرياً وسياسياً، وقد كان على قناعة تامة بعدم احتمال قيامهم بأي خيانة.

في صبيحة الثالث والعشرين من شباط عام 1966 حاصر اللواء السبعون، بقيادة العقيد عزت جديد القصر الجمهوري، حيث تواجد الفريق الحافظ الذي لم يستسلم، وقد قاتل حتى الرمق الأخير، وعندما خرج من القصر مستسلماً، وتقدّم من جديد وحاطوم، قام برمي مسدسه في وجهيهما قائلاً: "لو لم تنفد الذخيرة لدي، ولدى حرّاسي، لاستمرّيت بالقتال ضدكم"، هذا وقد قُتل عدد من حرّاسه، وأُصيبت ابنته في إحدى عينيها. تم اقتياده إلى السجن لمدة محدودة، ومن ثم أخلي سبيله، دون محاكمة أو قرار، وغادر إلى لبنان، ومنه إلى العراق، لدى تسلم أحمد حسن البكر الحكم، وبذلك اختفى العضو الثاني في اللجنة العسكرية، بانتظار اختفاء التالي، وهو اللواء سويداني، وتسريح مائة ضابط حوراني معه، بتهمة القيام بمحاولة انقلاب.

الرئيس أمين الحافظ يتوسط اللواء صلاح جديد و ميشيل عفلق

العربي القديم
صحيفة شهرية تعنى بالتاريخ السوري والعربي
وتستعيد ذاكرة الصحافة العابرة للأجيال

رئيس التحرير
محمد منصور

مدير التحرير
عبد الرحمن عمرين

سكرتير التحرير
رامي زين الدين

تدقيق لغوي
حسام الدين الفرا

إدارة سوشيال ميديا
فايز النعيمي

المستشار الفني
نبيل مراد

* الآراء الواردة في الصحيفة سواء من المقالات القديمة أو المقالات المكتوبة خصيصا لـ" العربي القديم" تعبر عن توجهات ورأي إدارة تحريرها
* إيميل التحرير: mansoursham@gmail.com
* واتساب التحرير والإعلان: 00905368116000

ذكريات طفل دمشقي

دمشق المتسامحة

بقلم: ياسر العيتي

نشأت في بيت الوالد الأستاذ تيسير العيتي رحمه الله في خورشيد أولى في حي المهاجرين. أما حيّنا الأصلي المسجّلين باسمه في دائرة النفوس فهو حي الشاغور الذي نشأ فيه الوالد، وما زال فيه منزل جدي خضر العيتي رحمه الله إلى يومنا هذا.

كان الوالد يحب أن نصحبه في الأعياد لزيارة المنزل الذي نشأ فيه، ويحدثنا عن ذكرياته في المنزل ومنها أين كان يجلس لكتابة واجباته المدرسية، وكيف كانت جدتي رحمها الله تجلس جانبه وتطلب منه محو الكلمات التي كان يكتبها بخط رديء وإعادة كتابتها مرة أخرى، وهذا ما جعل خط والدي من أجمل الخطوط التي رأيتها في حياتي.

الطريف في الأمر أن جدتي كانت أميّة لا تقرأ ولا تكتب وكانت تعتمد على حسها الجمالي في تقييم كتابة والدي وتمييز الخط الجميل من الخط الرديء! ثم كان الوالد رحمه الله يأخذنا في جولة حول المنزل يحدثنا فيها عن مغامراته في الحارات القديمة ويعرّفنا بفخر على بيوت جيرانه فعلى بعد أمتار من منزل الوالد كان بيت نزار القباني وعلى بعد أمتار أخرى كان بيت عائلة نظام، من وقتها سكن قلبي عشق الحارات القديمة وصرت أتردد وحدي إلى حيّنا القديم وأدلف منه إلى الأحياء المجاورة من حي الأمين إلى حارة اليهود إلى باب توما.

أما المنزل الذي نشأت فيه والدتي فاطمة القصاص رحمها الله فكان في حي زين العابدين في سفوح قاسيون وكان جدي درويش القصاص رحمه الله حياً في فترة طفولتي لذلك كان ترددي على منزل جدي لوالدتي أكثر من ترددي على منزل جدي لوالدي وكان منزلاً عربياً تتوسطه (ديار) واسعة تتربع فيها شجرة نارنج وارفة الظلال كنا ننتظر قطافها كل عام. كان جدي درويش من أوائل أساتذة الرياضيات في دمشق وأكثرهم شهرة، وكان معروفاً بأمرين اثنين: أنه كان يرسم الدوائر بدقة عجيبة من دون فرجار، وأنه كان وهو يقدم دروس الرياضيات يكتب على اللوح بيده اليمنى ويرسم باليد اليسرى في الوقت نفسه!

حي الشاغور السني وحي الأمين الشيعي وحارة اليهود وحي باب توما المسيحي أحياء متجاورة عاشت قروناً من الزمن متآلفة متساكنة وتبادل أهلها العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، أما حي زين العابدين فلم أعرف أن غالبية سكانه من الشيعة وأن جدي درويش كان السني الوحيد في الحارة التي يسكن فيها، لم أعرف هذه الحقيقة حتى دخلت الجامعة!

لم يعرف تاريخ دمشق المذابح الطائفية أو القتل على الهوية أو الجدران والحواجز بين الأحياء المختلفة دينياً، ولم يكن السنة وهم أكثرية الدمشقيين يحترمون الأديان والطوائف الأخرى خوفاً من بطش دولة أجنبية أو تملقاً لسفير غربي، كان يفعلون ذلك بحكم تربيتهم الدينية والأخلاقية وبفضل سماحتهم ودماثتهم المعروفة التي تراكمت في موروثاتهم عبر آلاف السنين.

ما يميز سماحة دمشق واتساعها لجميع من لجؤوا إليها وسكنوا فيها عبر القرون، أن ذلك لم يكن على حساب هويتها الحضارية فالمآذن ترتفع في كل مكان والعربية لغة يتغنى بها الدمشقيون الذين أنجبوا عشرات الشعراء والأدباء والكتاب الذين أبدعوا بالعربية عبر العصور.

حافظت دمشق على هويتها وفي الوقت نفسه لم تقسر أحداً لجأ إليها على محو هويته حتى أنك تعرف الأرمني الدمشقي من كنيته التي لم يضطر إلى تغييرها، وأن تحافظ مدينة على هويتها الحضارية في الوقت الذي تفسح فيه المجال للثقافات والأديان المتنوعة ليكون لها وجودها وتميزها ولونها الخاص بما يثري هذه المدينة ويزيدها تنوعاً وغنى تلك لعمري (حيوية حضارية) لا تتميز بها إلا قلة من الحواضر على وجه الأرض.

اعزاز 2023/9/20

حسني البورظان ومقاله الذي لم يكتمل

عبد الرحمن عمرين

إذا أردنا ان نعرف ماذا في إيطاليا، يجب أن نعرف ماذا في البرازيل! هذه الجملة التي نعرفها جميعًا قالها حسني البورظان (الفنان الراحل نهاد قلعي)، عندما كان يحاول تأليف مقال، وغوار الطوشة (دريد لحام) يشوش عليه ليمنعه من إنجاز عمله ونجح بذلك! على بساطة العبارة، لكنها تفسر الأسباب غير المباشرة لوقائع غيرت مجرى حياتنا! يعني يمكننا القول: إذا أردنا أن نعرف ماذا في دمشق، يجب أن نعرف ماذا في طهران، أو موسكو، أو واشنطن! لأنه "لا أحد يقدح من رأسه" كما يقال في أوطاننا العزيزة! لكنني أعتقد أنها عبارة تعكس النبوغ السياسي الساخر الذي تمتع به قلعي فسبق أبناء جيله.

في برنامج (سهرة مع فنان) سنة 1978، قال قلعي: "شخصية حسني البورظان تشبهني تماماً في حياتي العادية، لكنني أقل جدية بالواقع"، وهو كذلك فعلاً، فالأفكار والنصوص والحوارات التي كتبها ومثلها، لا تأتي سوى من شخص مبدع ومثقف، لديه قدرة عالية على ابتكار المواقف الطريفة والمضحكة. حتى بعد الاعتداء التشبيحي عليه بأحد مطاعم دمشق، والأذى الجسدي والنفسي الذي تسبب برحيله لاحقاً، بقي عطاء قلعي مستمراً، وإن بوتيرة أقل، وأبدع في سلسلة رسوم كرتونية للأطفال عبر مجلة (سامر) اللبنانية، حملت توقيع "عمو حسني".

ما يدمي القلب أن فناناً كالراحل نهاد قلعي في بلاد طبيعية تحترم مثقفيها وفنانيها، كان ليبقى ذكره مخلداً ألف عام، بنصب تذكارية وصالات مسرحية تحمل اسمه، أو على الأقل قاعة بالمعهد العالي للتمثيل، لكنه كغيره من مشاهير سوريا ومفكريها الذين حاربهم نظام الاستبداد، وعمل على طمس وجودهم واستبدالهم بأرغوزات وعاهات فنية، تطوش وتزعق وتُطبّل للمقاومة والممانعة الصورية وحملات الصدور العارية!

ختاماً وخلال بحثي في يوتيوب عن إحدى حلقات مسلسل صح النوم، وتحديدًا الحلقة التي ترد فيها عبارة (إذا أردنا أن نعرف..)، قرأت بالتعليقات أسفل الفيديو: (إذا أردنا أن نعرف ماذا في حفرة التضامن، علينا أن نعرف ماذا في سجن صيدنايا)!

لوحة الغلاف

- الفنانان نهاد قلعي ويوسف حنا بريشة الفنان السوري علي حمرا -
تتقدم أسرة تحرير (العربي القديم) من الفنان علي حمرا بجزيل الشكر للرسم الكاريكاتوري الذي زيّن بريشته غلاف هذا العدد.

إعلانك في العربي القديم طريقك الأمثل للوصول إلى الجمهور السوري والعربي في أقطار المشرق
العربي القديم تَعبر بك نحو أجيـــال جديدة لم تعِش زمنك وتدخلك في ذاكرة التاريخ

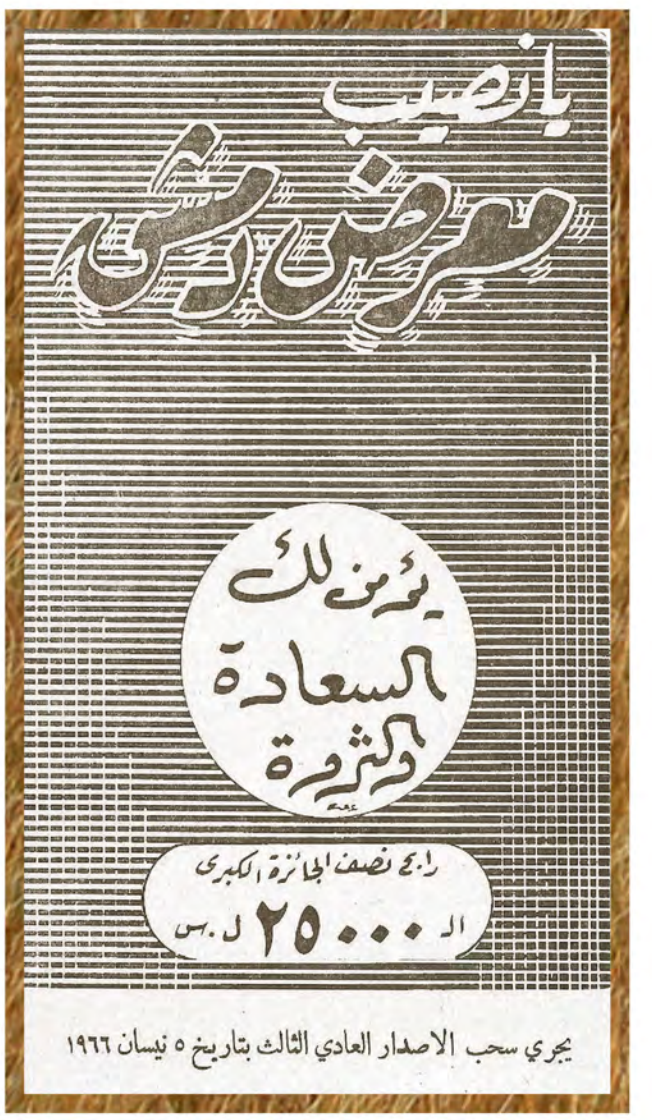

تقسم الاعلان في مكتب :
أنباء سوريا
دمشق - سنجقدار - ص.ب - ٤٣٠ - هـ ١٤٤٨٦
للأعلان والدعاية في :
الصحف - المجلات - السينما - الطرق
في دمشق والمحافظات على أحدث الطرق...

القضية

بعد ثلاثين عاما على رحيل نهاد قلعي

دريد ونهاد: ثنائي متكامل أم ظالم ومظلوم!

رحل نهاد قلعي في خريف عام 1993 بعدما تحول خلال الثلاثة عشر عاماً الأخيرة من حياته، التي عانى فيها محنته المرضية إلى نموذج للظلم الفني، فاتهم شريكه دريد لحام في نظر شرائح واسعة من السوريين بـ"الانتهازية" والتنكر لرفيق دربه هنا مقال كتب قبل ثلاثة عقود تقريباً... فهل سيبقى نهاد قلعي أيقونة "الفنان الضحية" في ذاكرة الفن السوري؟!

يوم حلو، يوم مر، في حياة نهاد قلعي

بقلم: محمد منصور

الكل متفقون أن نهاد قلعي أعطى أكثر مما أخذ، بل أعطى الكثير ورددنا له القليل

بعد نهاية الفصل الأول جاء الرئيس ناظم القدسي ليهنئ نهاد قلعي بأدائه الرائع لدور الأعرج، لكن وزير الثقافة أخبره أنه كان يمثل بقدم بها ثلاثة كسور!

" ماتت الرسالة وبقي صندوق البريد!" هكذا وصف محمد الماغوط رحيل نهاد قلعي وبقاء دريد لحام!

"ليس الفن وحده الذي ظلمني" فظلامي كثر. وأنا أعيش حالياً جواً من الإحباط، لكني لو عدتُ إلى بداياتي، وقيّض لي أن أختار حياة جديدة، لما اخترت غير الطريق التي سلكتها، رغم مرارتها ووعورتها في أحيان كثيرة".

هكذا تحدث نهاد قلعي في آخر حوار صحفي نشر بعد رحيله بأيام، وهكذا لخص هذا الفنان الكبير خيباته الكبيرة وأحزانه الكبيرة أيضاً، وهو يعيش آخر أيامه محروما من ممارسة نشاطه الفني. أهو المرض... أهو الأحباط... أم هي مرارة الشعور بالخذلان.. أم كل هذا معاً؟

لا أحد يستطيع أن يتكهن السبب بدقة، لكن الكل متفقون أن نهاد قلعي أعطى أكثر مما أخذ، بل أعطى الكثير ورددنا له القليل. وعلى امتداد رحلة العطاء الطويلة هذه، تستوقفنا محطات مرة وأخرى حلوة. أيام وذكريات ورؤى وأحلام، نطوف مع أبرزها، علّنا نرسم صورة لنهاد قلعي، الضاحك الباكي، الكريم الشجي النقي.

يوم حلو

* اليوم: 26 شباط 1960

نهاد قلعي المدير الأول لفرقة المسرح القومي في سورية، يعلن ولادة المسرح القومي في سورية هذا اليوم، عبر المسرحية الأولى "المزيفون" التي كتبها الأديب المصري محمود تيمور، وقام نهاد قلعي بإخراجها.

رجال صحافة وإعلام وأدباء ومثقفون يحتشدون في مسرح الحمراء الدمشقي، ليشهدوا هذا الحدث الثقافي الهام. ونهاد قلعي الإداري والمخرج يوزّع نفسه بين الكواليس والصالة، بنشوة شبيهة بطعم الحب الأول، ودهشة الولادة الأولى، والجهود التأسيسية الريادية الأولى.

ومن وحي هذا التاريخ ثمة قصص حلوة جديرة بأن تُروى، أيام المجد الفني الذي عاشه نهاد قلعي بمشاعر ود بقيت عالقة في ذاكرته، تضيء عتمة أيامه الأخيرة. ولنستمع إليه يروي:

"طلبت مني وزارة الثقافة ذات يوم عرض مسرحية "البرجوازي النبيل" تكريماً للطلبة الذين حصلوا على مراتب عليا في جميع الكليات السورية، وذلك في إطار الاحتفالات بمناسبة وصول ناظم القدسي إلى سدة رئاسة الجمهورية السورية، وتسلم خالد العظم مقاليد رئاسة الوزراء. وفي اليوم المحدد قبل ساعة من موعد العرض، توجهت إلى مسرح القباني للتأكد من أن مسؤولة الملابس جهزت جميع الملابس والإكسسوارات المطلوبة للمسرحية. كنت متوتراً ومضطربا والرهبة تملؤني، فقد كانت المرة الأولى التي يحضر فيها رئيس الجمهورية واحدة من تمثيلياتي. وعندما بدأت أرتدي ملابسي اكتشفت أنها ناقصة، فهرعت أبحث عنها في غرف الزملاء لكن دون جدوى. وما كان مني إلا أن ركلت الباب بقدمي لشدة الغضب، فانكسر الباب، وانسكرت قدمي!

تم إحضار الأطباء على الفور، فقرروا بالإجماع منعي من الحركة. وجدت نفسي في حيرة من أمري، فماذا أفعل والرئيس شخصيا سيحضر بعد قليل؟! قررت أن أقدم المسرحية رغم كل شيء. بعد نهاية الفصل الأول جاء سيادة الرئيس لتهنئتي، وأبدى إعجابه الشديد بي وبطريقة إتقاني لدور الأعرج. لكن وزير الثقافة أخبره حقيقة المسرحية، فاقترح الرئيس الطيب الاعتذار من الجمهور عن متابعة العرض والإعلان عن تأجيله إلى وقت لاحق، لكنني لم أزدد إلا إصراراً على مواصلة المسرحية، فأتممت فصولها الخمسة رغم الكسور الثلاثة في قدمي، وعند إسدال ستارة الفصل الأخير، اشتعلت الصالة بتصفيق منقطع النظير".

يوم مر

* اليوم: (....) تموز 1976

لا يذكر نهاد قلعي بالضبط تفاصيل ذلك اليوم، أو أنه كان يجهد نفسه لينساه! كان ذلك في العام 1976 وعلى خشبة مسرح نقابات العمال بدمشق، حيث تقدم أسرة "تشرين" مسرحيتها الجديدة "غربة" وهي التعاون الثاني بين دريد ونهاد الشاعر محمد الماغوط.

لقد سقط نهاد قلعي صريعا على خشبة المسرح إثر حادث كان قد جرى منذ أيام حين تعرض لاعتداء في نادي القصاع العائلي. أصيب بنوبة عصبية مفاجئة. توقف العرض، وأسدل الستار، وحضرت سيارة الإسعاف لتحمل الفنان الكبير إلى المستشفى.

لم تكن أزمة عارضة، ولم يكن يوماً مراً سيمضي، بل كان بداية أيام مريرة قادمة، توقف فيها عن متابعة العرض المسرحي، واستمرت "غربة" بممثل بديل. بصعوبة بالغة تمكن نهاد قلعي فيما بعد، أن يصوّر المسرحية تلفزيونيا في استوديوهات عمّان، دون أن يدري أن هذا العمل سيكون آخر أعماله المسرحية.

فيما بعد سيتحدث نهاد قلعي عن أحب أعماله المسرحية إليه "ضيعة تشرين"، أما "غربة" فقد ظل متشائما منها لسنوات طويلة: " لقد شهدت بداية محنتي المرضية". وباستثناء لفتة الوفاء المعبرة التي رفعت من معنويات نهاد قلعي المريض في المشفى، حين أطلق اسمه – لبعض الوقت - على الفرقة فغدت "أسرة تشرين"هي "فرقة نهاد قلعي"؛ فإن نهاد قلعي عاش بعد ذلك سنوات من المرارة عبّر عنها بالقول:

" نتيجة معاناتي مع المرض الذي أبعدني عن الساحة الفنية، وإحساسي بأنني لم أقدم كل ما لدي، خرجت بأمنية مستحيلة، وهي أن يكون للفنان عمران: العمر الأول يمضيه في التعلم والدراسة ليصقل موهبته، والعمر الثاني يكرسه للعطاء".

يوم حلو آخر

* اليوم: 30 تشرين الثاني 1991

في حفل ختام مهرجان دمشق السينمائي، تقرر وزارة الثقافة تكريم نهاد قلعي، كأحد الرواد المؤسسين ضمن مجموعة من السينمائيين القدامى. التكريم، أتراه أمنية العمر الأخيرة... أم دمعة العمر الأخيرة؟!

ونودي باسم نهاد قلعي إلى المنصة، صمتت الصالة لثوان خاطفة تنتظر أن يتلاشى الصدى. صمتت الصالة لبرهات أطول كأنها تلتقط أنفاسها، ثم ضجت بالتصفيق الحاد, وقف جميع الحضور من السينمائيين العرب إجلالا، منتظرين وصول الفنان الكبير بخطواته الثقيلة إلى المنصة، متابعين تصفيقهم الحاد بالحرارة نفسها التي كان يشيعها حضور نهاد في الفن والحياة. ولم يستطع الفنان الكبير لدى وصوله إلى المنصة، أن يمنع دمعة جافة وحارقة من السقوط، في فرحة العمر الأخيرة، وهو يتسلم شهادة التكريم من وزيرة الثقافة، معبرا عن امتنانه وفرحه وحزنه في الآن نفسه.

يوم أخير: ماتت الرسالة!

وحين حل مهرجان دمشق السينمائي الثامن بعد عامين، كان رحيل نهاد قلعي قبيل أيام قليلة مؤثراً وقاسياً، ليس هو الموت الذي يُقر به الجميع، بل هي الخسارة التي يعرفونها ويخشون أن يعترفوا بها.

" ماتت الرسالة وبقي صندوق البريد!"

هكذا وصف محمد الماغوط رحيل نهاد قلعي وبقاء دريد لحام. بكلماته السوداء، الحادة، المكثفة، الجارحة كما رحيل نهاد نفسه، وكأنه كتب على هذه "االرسالة" أن تغرق في أحزانها، رغم الفرح الكبير الذي أشاعته في أيام الآخرين.

مجلة (استجواب) العدد (6) 18/ 10/ 1994

القضية

دريد ونهاد: ثنائي متكامل أم ظالم ومظلوم؟

عدنان عبد الرزاق

ملح نهاد وسكر دريد

خال [نهاد] بغيريته المستمدة ربما من طباعه الأصيلة، بالخجل والكرم، أن ملح الرجال على الرجال دين، ولم يدرك أن الملح على الأنذال صدقة، يستغلونها ليتنكروا أول ما يتنكرون، للمُطعم الكاسي!

شتان، بعد اختبارات الثورة لضمائر ومواقف الفنانين، بين "حسني وغوّار" أو وضع دريد لحام، رغم ما حقق من شهرة ووصولية، بكفة مقابلة، مع نهاد قلعي المقتول بطعنة الخذلان عام 1993، بعد سنوات من الخيبة والعوز والحسرات. ولعل منطلق ودليل ذلك "الشتان" مما بقيّ لنهاد بقلوب وذواكر السوريين، حتى بعد وفاته بثلاثين عاما "1928-1993" مع الخزي والعار اللذين يلاحقان دريد لحام وهو على قيد الحياة.

حبلى ذاكرتي بقصص وأوجاع، حول استغلال أحد أهم ثنائي عربي للآخر، وتفيض الذاكرة بحكايا، للأسف، قلّما يُعترف بعدالتها، بزمن الجحود والوصولية و"حلال على الشاطر".

بيد أني سألجم استفاضتي ما استطعت وأرمي ما يمكنني، باتجاه مركز الهدف، علّي أضيف بعض إنصاف، لمن أراه مثالاً للغيرية والموهبة وأعتبره من أكبر ضحايا الفن السوري بالعصر الحديث، وإن نافسه الكبير خالد تاجا حيناً وزاحمه فنانون اختاروا الوقوف إلى جانب الحق والثورة معظم الأحايين، فدفعوا ولم يزالوا، أثماناً ربما لا تقل عن خيبة وحرمان الراحل نهاد قلعي.

لا يمكنني مهما تجمّلت، من إبعاد شيعية دريد لحام عن كل ما وصله، بعد أن قام بأدوار وظيفية، ربما أخطرها "تنفيس" السوريين التي راقت لحافظ الأسد الذي منحه عام 1976 وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، والذي، التكريم والوسام، كان لهما الأثر الأبلغ بعمق طعنة نهاد قلعي، والتي تلقاها بفروسية وتابع مع دريد بأعمال كثيرة. ليحاول الوريث القاصر ترقيع عورة أبيه، فيمنح عام 2008 وسام الاستحقاق لنهاد قلعي بعد مماته، ويعيد منح الوسام لدريد لحام.

فلابن حي الأمين حظوة تعدت المحلية، بعد وصايا مرجعيات إيران، بالعناية والتمييز التي أثمرت نتائجها بتأييد الهيمنة الإيرانية بعد الثورة ومباركة صنائع حزب الله بقتل السوريين، في حين لموهبة ومباشرة ووضوح نهاد قلعي، ابن حي سوق ساروجا، فضلاً عن انتمائه المذهبي، أدوارٌ بإقصائه عن التتويج بحياته وإهماله لحدود العوز، خلال فترة مرضه وقبيل وفاته التي ينسب كثيرون سببها الأساس، لضرب ضابط أسدي نهاد قلعي بكرسي على رأسه في مطعم بحي القصّاع بدمشق.

وأما رميتي التي قد لا تروق لكثيرين، حول ضحية استبداد أسدي، خبير بقتل المواهب وضليع بوأد التجارب المختلفة، فهي لومي لنهاد قلعي رحمه الله.

أجل، أقولها وأتمنى أن تُفهم على نحو دوافعي، من وجع وحسرة على مدرسة من المواهب، تجلت بالكتابة والتمثيل والإخراج، وحالة فنية متكاملة، قد لا تتكرر إلا كل قرون.

فنهاد قلعي، ومن الآخر، هو من رضيَ، بصرف النظر عن الأسباب والمبررات، برفع دريد لحام وتقديمه عليه، بعديد من الأعمال والمناسبات والأجور... وخال بغيريته المستمدة ربما من طباعه الأصيلة، بالخجل والكرم، أن ملح الرجال على الرجال دين، ولم يدرك أن الملح على الأنذال صدقة، يستغلونها ليتنكروا أول ما يتنكرون، للمطعم الكاسي.

فمن كان منذ خمسينيات القرن الماضي علامة تعجّب، مذ أسس فرقة "النادي الشرقي"، وخيار الجمهورية المتحدة، بعد عرض "ثمن الحرية"، ليكون أول مدير للمسرح القومي بالإقليم الشمالي... هو نفسه من قبل بتسلق دريد لحام على أكتافه وماضيه وموهبته.

ونهاد قلعي الذي كان لظهوره بأول برنامج منوعات عرضه التلفزيون السوري"الإجازة السعيدة" موضع الإدهاش، فتح الباب على مصراعيه لدريد لحام، ليتصدر المشهد في أعمال تلفزيونية، جميعها من كتابة الراحل قلعي" مقالب غوار- حمام الهنا- صح النوم- ملح وسكر" وكذا لأعمال سينمائية بدأت ب"عقد اللولو".

والراحل الكريم الذي بدأ مسرحياً مع دريد لحام ب"مساعد المختار" قبل تأسيس مسرح"الشوك" الذي ابتدعه، الراحل عمر حجو، وانضمام الراحل محمد الماغوط ليخط "ضيعة تشرين وغربة" كباكورة لسلسة مسرح سياسي، كان علامة فارقة بالمنطقة العربية، رغم مالنا من مآخذ ربما ليس مكانها هنا، إن بدأت من اسم ضيعة تشرين بعد وهم انتصار حرب تشرين، لا تنتهي عند التنفيس وفش المتلقي عبر مقولة، ماذا يمكنك أن تقول أكثر مما قلنا..انضب واصمت...هو من قبل باتساع دور دريد على المسرح وتسويغه "ون مان شو".

وكما أتيت آنفاً في تحميل الراحل الموهبة قلعي، بعض ما حلّ به على الأقل، من دون سوق المبررات، وإن كانت وجيهة.

أختم بدور الراحل بمسرحية "غربة" وقبوله بالدور وهو مريض، ما كرس الشفقة بذهنية المتلقين وقتذاك، بدل من حجر الأساس والركن الأبرز، كما بأعمال البدايات والانطلاقة.

ولعلّ ثعلبة دريد لحام وايثاره تسويق قلعي على ذلك النحو لمآرب وخط عودة حينما سيواجه بجحده وعقوقه، ينقلنا للمقلب الآخر بهذه المحاكمة السريعة..

فكما قلنا عن موهبة وغيرية وأصالة نهاد قلعي، ربما المنطق يدفعنا للاعتراف بذكاء وموهبة دريد لحام، وإن شابها التمثيل والتصنّع، إن بالصوت أو الحركات البهلوانية التي تفيض عن حاجة المشهد وخصوصية الخشبة..

وربما المثال الذي يقفز لذاكرتي الآن، هو سعيد صالح وعادل إمام، فكما الجميع يعترف بتفوّق موهبة سعيد صالح، كما يقرون بموهبة نهاد قلعي، إلا أن الحصاد الذي حققه "غوار" قبل "الزعيم" ينكأ الجراح بعد استعراض نهاية سعيد صالح كما تذكر نهاية قلعي.

لتبقى غصة القلب و"القيح الذي يصل الحنجرة" حول زماننا الرخو، الذي يصفق لغوار والزعيم، ويتناسى فضائل ومواهب، قتلها القمع حيناً وخيانة "سلام يا صاحبي" بقية الأحايين.

نهاية القول وعود على بدء "العنوان" أرى، وربما يوافقني جلّ السوريين، أن نهاد قلعي عبر مسيرته المسرحية والسينمائية والتلفزيونية، كان ملح الفن السوري الذي خانه وتنكّر له دريد لحام...الذي أراه سكر الفن السوري الذي قد يمتعك بطعمه الضار للحظات، لكنه أس وأساس الأمراض التي إن بدأت بالاستغلال لن تنتهي بالخيانة.

إيمان الجابر

نهاد قلعي: جرم بملامح إنسان

عن ماذا يجب أن يعتذر دريد من نهاد؟
عن الإهمال والقطيعة بعد المرض، أم عن الاستغلال المعنوي والمادي قبله؟

لاستعادة التفاصيل تنهض الصور من غيبوبتها القسرية، تُعيد تشكيل المشهد الصامت، تتسرّب الحياة شيئاً فشيئاً لها، لا أسمع الكلام، وإنما أراه، جبلاً من الموهبة مقيداً بحزنه، حطام إنسان، قتيل يتحدث عن قاتله، عن ناكر الحق وسارقه، هو مشهد يبدو سريالياً لوهلة، لولا أن سطوع اللون الأبيض يعيد التفاصيل إلى الذاكرة.. يتابع كلامه: "بقي لآخر لحظة، وهو يحاول إزالة اسمي من القائمة المعدّة للتكريم، قالوا لي: لم يترك طريقة ممكنة، حتى لا يتمّ تكريمك" مزيج من الغضب، والحزن تجلّى بنبرة صوته.

بدت كلماته القليلة البطيئة، المتقطعة مشبعة بالقهر، مثقلة بالوجع والمرارة. يصمت، ملامح وجهه تُكمل ما تبقى من كلام كان يمكن أن يقال، إلا أن نُبل هذا الإنسان منعه. الشعور بالخذلان الذي ينهش الروح، ولا يستثني الجسد، ينتفض، ويسأل لماذا؟

لعنة الذاكرة البصرية، لماذا كلّ هذا البياض البارد القاسي؟ في بيته الكائن في حي المهاجرين يفرض هيبته وجلاله، على معظم تفاصيل البيت المتواضع شديد البساطة، كان ذلك بعد أشهر قليلة من ظهوره، في حفل ختام مهرجان دمشق السينمائي، عندما كرمته وزارة الثقافة، في أواخر سنة 1991، وكنت شاهدة على الاستقبال العظيم له، بحضور نخبة من النجوم والسينمائيين العرب والسوريين، بدا وكأنه عاد إلى الحياة من جديد، هذه السعادة لم تدم طويلاً، عندما علم بما قام به رفيق دربه، ومَن كان أحد أهم الممثلين الكوميديين في سوريا، والوطن العربي لسنوات طويلة.

لم يكن ينظر باتجاهنا، كان يحدق بكّل ذلك البياض الذي يحيط به، وكأنه يبحث عن كلمات مناسبة لقولها ، كلمات تجعله يستوعب حجم هذا الأذى، كي يفهمه، ويقدر على شرحه لنا نحن (الكاتب الصحفي الراحل الأستاذ عادل أبو شنب وأنا)، لماذا ؟

حقاً، لماذا كل هذا الحقد، لماذا؟! يحارب فنان، كي يمنع تكريم فنان آخر يُعتبر أحد أهم نجوم الكوميديا، ومن أبرز كتّابها ومبدعيها، ما الذي سيأخذه منه، إن عاد قليل من الضوء، والدفء لروحه المتعبة، المهجورة، المغيبة.

أعتقد كلنا في دواخلنا كنا نتساءل لماذا، بعد أن تبادلنا الصمت؟ كنت عاجزة عن طرح أي سؤال يليق بمستوى هذا الألم. كل الأسئلة المُعدّة مسبقاً، سقطت، لم يعد لها قيمة، أية محاولة مني للضغط، باتجاه الحصول على حوار صحفي مناسب قابل للنشر بات صعباً، وسيكون فيه من الأنانية ما لا أستطيعه، وعلى صغر سنّي حينها، فهمت الدرس. ليس كل ما يقال للنشر، وليس كل ما ينشر هو حقيقة ما يقال، وعلي أن أكون مستعدة لحوارات قادمة، يقال لي بعد انتهائها، هذا الكلام ليس للنشر، إذا كان هذا الكلام ليس للنشر، لماذا عليّ أن أجري حواراً تكرّر مئات المرات من قبل؟

حالة صمت كئيبة، استمرت قليلاً، وربما كثيراً، حتى دخول زوجة الأستاذ نهاد، بملابس الصلاة البيضاء، ليزداد المكان بياضاً، قدمت القهوة، وقالت بضع كلمات لا أذكرها، مشيرة إلى الكمية الكبيرة من الأدوية المكوّمة فوق منضدة بيضاء أيضاً، متوسطة الحجم، قرب مكان جلوس زوجها، التفتّ أنا إليها محاولة تقدير عددها، حسابات يقوم بها من لديهم شيء من الوسواس القهري. كم يحتاج من الوقت لتناولها؟ ماذا عن عدد المرات؟ كيف يعرفها من بعضها؟ تبدو لي متشابهة، هل بينها أدوية تعالج آلام الخيبة، وخذلان رفاق الدرب، وصمتهم عمّا حدث له، تركه سجين الوحدة والفراغ؟ هو الناجي من حادث أليم كاد أن يُودي بحياته، لم ينجُ من الهجر، من تغييبه القسري عن متابعة حياته، وهو مازال قادراً على العطاء والكتابة، هذا نوع من المشاركة في القتل الذي بدأه ذلك الضابط الذي انهال عليه ضرباً، بالكرسي على رأسه، مستهدفاً عقله، كرامته، موهبته، جمال روحه المبدعة الحنونة، ولقمة العيش.

قتل على دفعات، قتل مضاعف، فكان هجر الأصدقاء أشدّ وطأة على النفس النبيلة، من ذلك الاعتداء الفاجر، من كائن يعطي صورة واضحة عن سلطة القمع، والقهر والإذلال، التي سمّيت من قبل فناني النظام وأتباعه من المثقفين بالوطن، دون أن يمتلكوا شيئاً من الكرامة، للتضامن العلني معه، والمطالبة بكشف حقيقة وأسباب ما جرى معه، وهو مَن كان له الفضل عليهم جميعا وباعترافهم، قالوها بعد وفاته، في مقابلات أجريت معهم، لا مجال لذكرها هنا، اكتفوا حينها بتناقل القصة بين بعضهم بعض همساً، ربما خوفاً من اعتقالهم، إن هم أظهروا شيئاً من الكرامة، للدفاع عما يُسمى حقوق الإنسان والفنان، أو طلبوا أن ينال المعتدي عقابه.

أعتقد أنه حتى اليوم لم يُعرَف مَن هو، ولم يُحاسَب على جريمته .

وصف الأديب الراحل خيري الذهبي في مقال له ، حال نهاد قلعي بعد الحادث: (سواء كان مدبراً بمؤامرة، أم مجرد صدفة ـ إصابة نهاد قلعي بالشلل الذي أقعده عن الحياة والعمل، وشيئاً فشيئاً خبت الأضواء من حوله، وانسحب الأحباب والأصدقاء، ليجد نفسه وحيداً قعيداً مشرفاً على الإفلاس، ولا يجد من يواسيه أو يُقدّم له يد العون الحقيقية. وفي الوقت نفسه يعاني من شماتة الأدعياء، وصلافة الأغبياء، وجحود الأصدقاء، مما أدى إلى تدهور حالته).

عندما طُلب مني كتابة هذا المقال، وذكر هذه الشهادة، بحثت في النت عن أي شيء يؤكد هذا الذي سمعته بأذني من نهاد قلعي، ورأيته بعيني في وجهه المعبر، عما يجول في وجدانه، وأعماق روحه، قرأت الكثير، مما كُتب عن نهاد قلعي، وشاهدت مقابلات أُجريت معه وعنه، لفت انتباهي فيديو مجتزأ، من لقاء طويل لفنان السلطة المدلل، عنوانه (دريد لحام يعترف بظلمه لنهاد قلعي، ويعتذر على الهواء)، لوهلة صدمت، معقول عن ماذا سيعتذر؟

وهل هناك مَن لا يعرف في الوسط الفني مثلاً، عن ماذا يجب أن يعتذر دريد من نهاد، عن الإهمال والقطيعة بعد المرض، أم عن الاستغلال المعنوي والمادي قبله؟ لم أنتظر طويلاً، ليجيب قائلاً: (بعتذر من الأستاذ نهاد أنو كترت مقالب عليه، ثم يضحك ها ها ها ها... مو أنا غوار). إذا غوار الطوشة يعتذر من حسني البورظان عن المقالب التي كتبها الأستاذ نهاد قلعي .

أخيراً اللقاء الذي جمعني بالأستاذ نهاد قلعي في بيته، لم يُسجّل، ولم يُنشر، ولكنه ساهم بشكل كبير، في تشكيل رؤيتي للحياة والفن والصداقة، وكذبة ما يُسمى برفاق الدرب في الوسط الفني السوري.

القضية

دريد ونهاد: ثنائي متكامل أم ظالم ومظلوم؟

مصعب الجندي

نهاد قلعي
وفاء ونكران

بعد هزيمة حزيران الأليمة عملت القيادة المهزومة، على التخلص من أي صوت يطالب بالمحاسبة، وكشف الحقائق، وكان أولهم سامي الجندي الذي انتهزت فرصة مجيئه من فرنسا، لحضور المؤتمر القومي، التي سبق وأبعد إليها كسفير لسوريا، وألقت أجهزة الأمن القبض عليه في المطار، وأودع السجن. حينها اعتبرت فرنسا الأمر مخالفاً للأعراف الدبلوماسية التي تقضي بأن يُودع أي سفير تنتهي مهمته رئيس الدولة المضيفة، ورفضت استقبال سفير لسوريا، قبل تسوية الأمر، وتم تسويته بأن أُطلق سراح سامي الجندي، وزاره في منزله السفير الفرنسي في سوريا، رغم ذلك لم يشتفِ غلّ العسكر، وسرّب أصدقاء سامي أن القيادة تبحث عن حجة لإعادته للسجن، فاضطر إلى الفرار إلى لبنان بطرق غير رسمية، وانتشر في بيروت المخبرون يبحثون عنه، بحيث لم يتمكن من الإقامة عند أحد أشقائه، وشاءت الصدفة أن التقى بالأستاذ نهاد قلعي الذي كانت تربطهما صداقة واحترام، منذ أن كان سامي الجندي وزيراً للإعلام. لم يتردد الأستاذ نهاد، فأمّن الإقامة للجندي، وأظن في منزل كان يملكه في بيروت، وليس لأحد أصدقائه. بقي الجندي فترة تجاوزت الشهرين في بيروت، إلى أن حصل على وثائق سفر أردنية، وغادر لبنان إلى بلاد المنافي.

عام 1973 عاد سامي الجندي إلى بيروت، وكان والأستاذ نهاد يلتقيان كلما كان الأخير فيها، إلى أن كانت الضربة الأليمة عام 1976 التي كادت أن تودي بحياة القلعي، وانقطع الاثنان لفترة، ثم التقيا. كان القلعي يشكي همومه قليلاً للجندي، والأخير يشعر بألمه من نكران الناس، ويحتار كيف يردّ للصديق كرمه ومجازفته، حتى بحياته عندما قدم له الملاذ، لتكون فرصة له، حيث أقامت السفارة العراقية حفل استقبال بذكرى تأسيس حزب البعث، وعلى الرغم أن سامي الجندي كان منسحباً من كلا فرعيه (القوميين في العراق، والقطريين في سوريا)، لكن الجناح العراقي كان يكنّ له الكثير من الاحترام خصوصاً في فترة رئاسة أحمد حسن البكر.

أرسل السفير العراقي بطاقة الدعوة للجندي الذي طلب منه بطاقة ثانية للأستاذ نهاد، بعد أن تأكد من حضور السفير الليبي الجوال، وأذكر أن اسمه (سهيل بو غوفة) وهو من أصهار العقيد القذافي، وكان مسؤولاً عن ملف المطبوعات التي تدعمها ليبيا، كمجلة الوحدة، والكفاح العربي، وإصداراتها، وكان الجندي يعرفه جيداً، من خلال أصدقاء فلسطينيين، وللأمانة كان الرجل يجيد عمله.

ترافق الاثنان للحفل، وكما روى لي سامي الجندي إن نهاد قلعي بكى مرتين،

الأولى: الأولى للحفاوة التي استقبل فيها في الحفل، وللأسلوب الذي تعامل به معه (بو غوفة)، حيث وجه لوليد الحسيني (صاحب الكفاح العربي، ومجلة سامر للأطفال التي كان يمولها القذافي) بأن يكلف الأستاذ نهاد بالعمل الذي يريده، ويرتاح إليه.

غادر الاثنان الحفل، حيث أرادا أن يتسامرا قليلاً.

وكانت الدمعة الثانية لنهاد قلعي، حين التقيا بعربة لبائع موز، ورغب القلعي فيه، حيث سأل البائع البيروتي: بكم الموز؟ فأجابه البائع: بليرة. أردف القلعي:

"شوهاد غالي، ردّ البيروتي: يا خيّ هيدا صومالي، ردّ على البائع، وهو يشير بإصبع خنصره: صومالي شو هادا ياباني"،

قهقه الثلاثة طويلاً، وقال البيروتي، ولو يا أستاذ حسني (ويعني حسني البورظان) معقول أنا آخد منك فرنك، ورفض أن يتقاضى شيئاً، رغم إصرار الاثنين.

سعد فنصة

الاعتداء على نهاد قلعي:
القصة الحقيقية تُروى لأول مرة

لن أتحدّث عن تاريخ الفنان الكبير ونشأته، وبداياته الفنية ومشروعه المسرحي الذي بدأه مبكراً، فقد تحدث بها هو في أحاديث إذاعية وتلفزيونية ليست كثيرة، ويمكن وصفها بالمحدودة، والتي قد لا تؤرخ كاملاً لمسيرة هذا المؤسس في تاريخ الفنّ السوري والعربي، لكنها توثّق تاريخ هذا الفنان الذي تحوّل إلى الكوميديا التلفزيونية السينمائية، وشكّل بصمة كبرى، مع رفيقه الفنان الكبير دريد لحام، ولكنني سأحاول البحث في الذاكرة، عمّا حصل في قضية أحمد نهاد الخربوطلي القلعي، وهذا اسمه الحقيقي الكامل، والمولود في زحلة عام 1928 والشهير باسم حسني البورظان، منذ بداية تأسيس البثّ التلفزيوني الأول للجمهورية العربية المتحدة عام 1960.

من هو حسني البورظان؟

يقول الفنان الراحل، بأن فكرة اسم حسني البورظان كانت وليدة الساعة، عندما نسي تفصيلاً من الحوار في برنامج (سهرة دمشق)، والذي كان يُبثّ على الهواء مباشرة، وكان دوره يُكنى باسم حسني، فحاول الارتجال، عندما شاهد خلف الكواليس عازفاً يحمل البوق الكبير، فأطلق على نفسه في لحظة العرض اسم حسني البورظان، من هاتيك الساعة التصق به الاسم، ليكون سبباً في إسدال الستار، على تألقه المسرحي والتلفزيوني، في اختتام رحلة عمره الفنية مبكراً، وقبل الأوان.

ولكن للحقيقة رواية أخرى، أو وجوه أخرى، سأتحدث عن بعضها.

***

ربطتني صداقة قوية مع الدبلوماسي الشهير الدكتور صباح قباني، منذ عقود بعيدة، رغم الفارق العمري والمهني، بين صحفي شاب، ودبلوماسي وأديب كبير، وأهداني في ما بعد جزءاً حميماً ونادراً من ذاكرته الثقافية والسياسية، لأنني كنت طوال سنوات من أشدّ المحرّضين، على استحضار ذاكرته، وتدوينها، وقد فعلها أخيراً، قبل بضع سنوات من رحيله، وكنت من أوائل الأشخاص الذين أهداهم مذكراته، بجزأيها الأول والثاني، عن عمله الدبلوماسي والفني، في بدايات تأسيسه للتلفزيون، في الإقليم الشمالي من دولة الوحدة، وجاء بالتفصيل في مذكراته عن بداية لقاء دريد ونهاد، لأول مرة في مكتبه، خلال الإعداد للبث، إذ كان يجد في تكوين هاتين الشخصيتين قرباً من شخصيتين كوميديتين عالميتين هما لوريل وهاردي، دريد النحيف، وصديقه السمين هاردي، أو نهاد قلعي، وهما يواجهان المواقف الكوميدية، أو هكذا تخيلهما الدكتور القباني، قبل أن يعرفهما على بعضهما بعض في العام 1960، ليشكلا في ما بعد الثنائي الذهبي، وليخلّدا في الذاكرة، حتى يومنا الحاضر، وباتا أيقونة الكوميديا في العالم العربي قاطبة.

من هو حسني البورظان الحقيقي؟

أعتقد أن اسم حسني البورظان كان يُطلق على حسني الزعيم، صاحب أول انقلاب عسكري في العالم العربي، وكان اسم حسني الزعيم متداولاً، قبل انقلابه، عندما كان قائداً للشرطة، وكانت الأمهات تخيف الأولاد، باستدعاء الشرطي حسني، المخيف، إن هُم لم يناموا باكراً، أو لم يشربوا الحليب .. إلى ما هنالك من عادات تلك الأيام، ولكن قائد الشرطة فجأة أصبح قائداً لانقلاب عسكري، ورئيساً للجمهورية، يهوى الظهور، وكان مغروراً، وفوق كل ذلك كان (بورظاناً)... لمن كانوا يمقتونه.

شاهدي على ذلك مثلاً أن شخصية بدري بك الذي دوَّخ موسوليني في مسلسل "صح النوم"، ومساعده عزت شخصيات شبه حقيقية من عسكر سوريا، في حقبة حسني الزعيم، فمن يُكنّى بعزت هو عزت حسن، والذي سبق لي أن كتبت عنه، بأنه كان المسؤول عن تعذيب السجناء السياسيين، في سجن المزة السيئ الصيت، وكان يصرخ في السجناء مهدداً: (أنا رب العذاب)، بينما كان بدري بك أبو كلبشة ينادي على عزت، ويأمره برفع غوار على (الفلقة) لم يكن ذلك من سبيل الصدفة أبداً. ولن أستطرد أكثر، فهذا ليس موضوعي الأساسي.

قضية الاعتداء على الفنان نهاد قلعي

في لقاءاته الصحفية المُذاعة والمكتوبة، حاذر الفنان نهاد قلعي رواية تفاصيل حادثة الاعتداء عليه، إذ لم يأتِ على سرد حقيقة ما حصل معه، ناهيك عن أن هذه الحادثة كانت مؤلمة نفسياً وفيزيائياً على استجاباته الحسية، ولكن حصل بعدها تبعات قانونية، في أروقة القضاء، بقيت غامضة على ظلال الحدث.

لاحظ الفنان شاكر بريخان أن رفاق المعتدي يحاولون تهريبه. سارع وأقفل أبواب النادي، وأنذر جميع العاملين بعدم السماح لأحد بمغادرة مكان الجريمة.

فمن هو المعتدي، الذي قلب حياة الفنان والمبدع، بالتأليف والإخراج والتمثيل المسرحي، رأساً على عقب، وهو في قمة تألقه ونجوميته وإبداعه، إلى رجل شبه مقعد، عانى ما عانى من شظف العيش، وإهمال أصدقاء الأمس القدامى؟

ماهي مجريات المحاكمة التي تم إغفالها عن النشر، وهل أسقط الفنان حقّه في متابعة القضية، كما أشيع حينها؟

ما هو اسم المعتدي، وماذا كان يعمل، وكيف حصلت حادثة الاعتداء؟

القضية الناقصة

في صيف العام 1976، وخلال عروض مسرحية (غربة) في دمشق، كانت هناك زيارة للصحفي الشهير جورج إبراهيم الخوري، رئيس تحرير مجلة (الشبكة) اللبنانية، إلى دمشق آتياً من بيروت، بناء على موعد مسبق، للمشاركة في سهرة خاصة، استضافه فيها دريد لحام، ونهاد قلعي، وشاكر بريخان، حيث اتفق الجميع أن يصطحبا ضيفهما إلى النادي العائلي القابع بالقرب من حي باب توما، على أطراف دمشق القديمة، وبعد العشاء، اعتذر الفنان دريد عن المكوث أكثر لشأن يخصّه، وبقي الثلاثة نهاد، وشاكر يمضيان السهرة، مع الضيف الصحفي، ويتبادلان الأحاديث الودية والطرائف عن عرضهما المسرحي الجديد، وبعد نفاد سجائر الفنان نهاد، طلب من النادل أن يحضر سجائره المعتادة، ويبدو أن الوقت قد تأخّر، وأغلقت المحال المجاورة، فعاد النادل، دون أن يحضر المطلوب.

غضب نهاد قلعي، وعبّر عن ضيقه، فسمعه أحد الجالسين على طاولة صدف أن كانت خلفه من زاوية منحرفة عن مجال رؤيته، عندما سمع نهاد صوتاً غليظاً يصرخ من خلفه، قائلاً: "لعيونك بورظان تفضل، وخذ من سجائري..". فأجابه الفنان نهاد في المرة الأولى، دون أن يلتفت إليه: "اسمي نهاد قلعي، واحتفظ بسجائرك، فأنا لا أريد سجائر من أحد".

ردّ الرجل الذي يبدو عليه سحنة القبضايات المنقرضة، في سبعينيات القرن الماضي مكرراً استفزاز الفنان قلعي قائلاً:" ولو يا حسني البورظان .. خذها مني.. ضيافة".

التفت إليه الفنان نهاد قلعي قائلاً بصوت مسموع، أسمَعَ فيه كل الحاضرين: "اسمي نهاد قلعي يا حمار...".

وفي لمح البصر، ودون أن يتوقع أحد ما ردة فعل وغضب الرجل، قام من فوره وانهال بالكرسي الحديدي الذي كان يجلس عليه، على رأس نهاد قلعي، فسقط الأخير مغشياً عليه، من هول الضربة الشديدة، ونفرت الدماء من رأسه.

صُدم الجالسون معه، الفنان المرهف شاكر بريخان، والصحفي جورج إبراهيم الخوري، من هذا المشهد المتسارع، وكأنه مقطع خاطف من مشهد سينمائي، لجريمة حية أُرتكبت أمام ناظريهم.

كيف كانت ردّة فعل الحاضرين؟

صُعق الجميع بهذا المشهد الدامي، المعتدي كان واقعاً تحت وطأة تأثير الخمر، فصحا فجأة وبدأ يصرخ: "ما الذي فعلته.. ما الذي عملته (شو عملت بإيدي)، عندما شاهد الفنان حسني البورظان مضرجاً بدمائه على الأرض، بلا حراك ظناً منه أنه قتل الفنان الكبير.

حاوط رفاق المعتدي الجالسون معه صديقهم آنذاك، وحاولوا حمله وإخراجه من النادي، بينما انشغل شاكر بريخان والصحفي اللبناني بمصاب نهاد قلعي محاولين إيقاف النزيف بشتى الوسائل، لحين حضور الإسعاف، هرع عمال النادي، وبعض الحضور في النادي، وقاموا برفع الفنان عن الأرض، بهذه اللحظة التي كان يتم فيها طلب الإسعاف واستدعاء الشرطة، وعندما لاحظ الفنان شاكر بريخان أن رفاق المعتدي يحاولون تهريبه. سارع وأقفل أبواب النادي، وأنذر جميع العاملين بعدم السماح لأحد بمغادرة مكان الجريمة. وفعلاً هذا ما حصل.

نقل الفنان إلى المشفى لخياطة جرح الرأس، وبدا أن الحالة الطبية للفنان مرت بسلام ظاهري، حين صحا من غيبوبته، ولا أذكر إن كان قد بقي في المشفى، أم إنه غادر في اليوم التالي إلى منزله.

التداعيات تظهر على المسرح

تعطلت العروض المسرحية اليومية بضعة أيام، عاد بعدها للوقوف على المسرح، ولكن لم يطُل أمر عوارض هذا الحادث، لتظهر تداعياته علناً، على الملأ في منتصف العرض المسرحي، يصاب الفنان الكبير بخثرة دموية في الرأس، تسببت له بحال من الشلل والآلام الشديدة، وتغيرت طريقة نطقه، واختلّت حركة يده، ومشيته. واستدعت إيقاف العرض المسرحي، لعدة أيام، واستبدال دوره في المسرحية بالفنان تيسير السعدي.

لقد تغيرت حياة الفنان نهاد قلعي برمتها في ما بعد.

روى لي تفاصيل هذا الاعتداء الآثم الفنان الكبير الراحل شاكر بريخان العلّامة الموسيقي والمبدع في مجال الكتابة والتلحين، حيث تمت محاكمة المعتدي، وجاء الحكم مخففاً، باعتباره كان تحت سلطة الخمر لحظة الاعتداء، واعتبارها مجرد مشاجرة، أدت إلى الإفراج عنه في ما بعد.

هذه هي القصة الحقيقية، وقد أكون سهوت عن تفصيل هنا أو هناك، لأنني أكتب من الذاكرة، ولكنني أؤكد بأن كل ما كتب، وروّج من خرافات ومبالغات، حول هذه القضية، ليس له أساس، أو قبول من الصحة.

وكل ما قيل عن هذا الشخص بأنه كان ملحقاً بجهة عسكرية تابعة لسرايا الدفاع، التي كان يرأسها رفعت الأسد عارٍ عن الصحة تماماً، وقد يكون المعتدي، له علاقة ما مع جهة متنفذة، ولكن وصف هذا الاعتداء بأنه كان مفتعلاً، أو مدبراً بأوامر محددة جاءت بترتيب مسبق، فللحقيقة والتاريخ، كل ذلك من صنع خيال بعضهم، ولا يمت إلى الحاصل بصلة.

ولكنني لا أنفي بما أمتلك من معلومات، لا يمكنني التثبت من صحتها، أن الجاني كان من قبضايات تهريب البضائع، وأن أصوله تعود الى صيدنايا، وكان يقضي بعض الوقت في دمشق أثناء حادثة الاعتداء، وقيل أيضاً إنه من أرباب السوابق الجنائية، وهناك تضارب حول اسمه، وماذا كان يعمل بالضبط، وهل قدم رشاوى للقضاء، كي يُخلى سبيله، أم لا، إذ إنني لا أنفي أن بعض الغموض لازال يكتنف هذه القضية، مما سمح لوابل من الأقاويل أن تُبنى عليها، فاختلطت الحقائق ب الأكاذيب، ولعل في بعض الغموض أسباباً لا يعرفها إلا أولاد الفنان الراحل: بشار ومها.

كلمة أخيرة

أدونها للتوثيق التاريخي، كان هناك علاقة خاصة ربطت الفنان شاكر بريخان بالرئيس حافظ الأسد، وقد حكى لي شخصياً عن طلبه من الرئيس الأسد تخصيص راتب تقاعدي للفنان يحفظ كرامته، بعد عسر أوضاعه المالية، وسعى أكثر من مرة، في ما سبق، مع الرئيس الأسد، عندما كان يمثل نقابة الفنانين، لإيفاده للعلاج خارج سوريا....

وأذكر أنه أُوفد إلى الأردن، بعد إصابته الأولى مباشرة، في ما بعد تم إيفاده إلى تشيكوسلوفاكيا، إذا لم تخنّي الذاكرة.

ولكن يبدو أن حالته كانت تزداد سوءاً، مع تراجع حالته النفسية، بسبب عدم تقدير الدولة له، ومنح وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى عام 1976 لدريد لحام فقط، وهو أمر استهجنه الكثيرون حتى داخل الوسط الفني آنذاك، ثم ابتعاده القسري عن الأضواء، وفشل عمله التلفزيوني الأخير جماهيرياً، الذي قدمه في العام 1984 بعنوان (عريس الهنا) وظهر فيه منهكاً بطيء الحركة، ليرحل في التاسع عشر من أكتوبر-تشرين الأول 1993 وقد ودعه السوريون بحزن وأسى.

الملف

نهاد قلعي و يوسف حنا

ثلاثون عاما من الغياب

غابا في مثل هذا الشهر قبل ثلاثين عاما.

احتفظ نهاد قلعي حين رحيله بلقب أول مدير للمسرح القومي

وكان يوسف حنا - حين رحل- آخر مدير للمسرح القومي.

فنانان جمعهما المسرح وقضية الفن، وإن طبعت أعمال نهاد قلعي بالكوميديا، واتسمت معظم أدوار يوسف حنا بالتراجيديا.

كلاهما ساهم في تشكيل الحركة الفنية في سوريا، وكلاهما كان رمزا للثقافة الأصيلة التي تبدع ذاتها.

(العربي القديم) تخصص ملفها لهذا العدد، للإضاءة على مسيرة هذين الفنانين، وما تركاه من ذكريات وأثر في الذاكرة والوجدان

إذاعة دمشق قطعت برامجها لتنفي شائعة وفاته:

نهاد قلعي شلل نصفي وعلاج في لندن

هو نهاد قلعي كالجندي البطل الذي يسقط في ميدان معركة الشرف .. هكذا سقط نهاد قلعي على خشبة مسرح اتحاد نقابات العمال بدمشق، عندما كان يقوم بدور المجنون في مسرحية «غربة»، وهي من تأليف نصفه الفني دريد لحام، واخراجه.

اسدلت الستارة، واستدعي الاطباء، فقرروا انه لابد من عملية جراحية تجرى في لندن، لان بداية شلل نصفي ظهرت على الفنان الظريف.

وعلى أول طائرة مسافرة الى العاصمة البريطانية نقل نهاد برفقة ابنته مها وطبيبه السوري. وذلك بمبادرة رسمية من القصر الجمهوري، ليعالج على نفقة الدولة السورية.

حملوه على نقالة الى الطائرة وهو فاقد الوعي، وودعته عناصر مسرحية «غربة» بحزن شديد، وبكى رفيق دربه دريد لحام من القلب، ومازال يبكي ويصلي لأجله.

توقف عرض مسرحية (غربة) وهي في أوج نجاحها ورغم أن هناك بديلا لنهاد ولكل الأدوار فأسرة تشرين أصرت على التوقف بانتظار شفاء زميلهم الفنان

وتوقف عرض مسرحية غربة وهي في أوج نجاحها، رغم أن هناك بديلا لنهاد ولكل الأدوار، كما هي العادة في مثل هذه الحالات. فأسرة تشرين أصرت على التوقف عن العمل "تعاطفا" بانتظار شفاء زميلهم الفنان الأديب. وفي المستشفى الوطني الايطالي بلندن، قرار الأطباء أن نهاد لا يحتاج لعملية جراحية لأنه مصاب بالسكري، وبحالات أخرى ربما تؤدي الى ما لا تحمد عقباه، وهو يعالج حاليا بواسطة الطب الفيزيائي، وهو عبارة عن تمارين صوتية، وتدليك بأوقات منتظمة حتى يختفي الورم من الرقبة، ويتحرك الدم المحبوس في أحد عروقها.

اعتداء سبق الإصابة

وعلى إثر توقف مسرحية غربة ونقل نهاد إلى لندن، انتشرت في الأندية الفنية والأوساط الشعبية حكاية الاعتداء الذي تعرض له نهاد قبل ثلاثة أيام من اصابته بداية الشلل. كان نهاد يسهر في مطعم النادي العائلي مع بعض الاصدقاء، وقبل نهاية السهرة بدقائق حصل سوء تفاهم بينه وبين أحد الساهرين على طاولة مجاورة، وتطور سوء التفاهم الى ملاسنة استعملت فيها إحدى الكلمات النابية، وانتهت بضربة كرسي على رأس نهاد نقل على إثرها إلى المستشفى، ثم أعيد إلى منزله بعد أن تم تقطيب جرح الراس بست عشرة قطبة، واستراح نهاد تلك الليلة بعيدا عن المسرح لأنها كانت ليلة العطلة الأسبوعية، وفي اليوم التالي أصر على أن يقوم بدوره، وظهر على المسرح وهو يرتدي طاقية حجبت آثار المعركة.

جاء هذا الاعتداء ليفجر الحالة النفسية التي يعيشها نهاد، والتي بدأت بتعرّض منزله للنهب والسرقة في لبنان، مرورا بعدم تقديره من قبل الدولة التي اكتفت بوضع الوسام على صدر دريد!

وقد جاء هذا الاعتداء ليفجر الحالة النفسية التي يعيشها نهاد، والتي بدأت بحادثة منزله الذي تعرض للنهب والسرقة في لبنان، مرورا بعدم تقديره من قبل الدولة التي اكتفت بوضع الوسام على صدر دريد، مع أن كلمه وزير الثقافة أثناء تعليق الوسام "ذلك الثنائي الذي له قواعد ثابتة في مختلف المدن العربية" هذه الكلمة الوجيزة التي قالها وزير الثقافة ليلة تعليق الوسام، أفرحت نهاد حتى أعمق أعماقه، لكن ما عقب الحفلة من تعليقات، كانت تنزل على نهاد كالزيت فوق الرماد، حتى كان الانفجار والسقوط فوق المسرح بعد معركة الاعتداء بثلاثة أيام.

شائعة وفاة نهاد

ونهار الجمعة الماضي، انطلقت في دمشق وكافة المحافظات السورية شائعة انتشرت بسرعة البرق عن وفاة نهاد قلعي في لندن. وقد عزز هذه الشائعة وساعد على انتشارها وفاة أحد أفراد عائلة قلعي، ولصق أوراق نعوته على جدران شوارع دمشق الرئيسية، وأمام كل المساجد. وعلى الرغم من أن اسم المتوفى يختلف تماما عن اسم نهاد، إلا أن الاعتقاد بان يكون اسم المتوفى هو الاسم الحقيقي، واسم نهاد هو الاسم الفني زاد في سرعة انتشار الشائعة. وعلى الإثر أجريت اتصالات رسمية لمعرفه مدى صحة هذه الشائعة، وبعد ساعات قطعت إذاعة دمشق برامجها لتكذيب الشائعة المغرضة بشدة، ولتبشر بتحسن ملموس في صحة الفنان المحبوب من كافة الأوساط الشعبية، وأجريت اتصالات شخصية تكلم خلالها دريد لحام مع ابنة نهاد التي كذبت الخبر جملة وتفصيلاً، وأكدت أن صحة والدها في تحسن.

لا يملك نهاد في هذه الدنيا سوى الشقة التي اختارها لراحته ولآخرته في لبنان، بعد أن جمع أثاثها من العواصم الأوروبية التي كان يزورها، وقد تعرضت هذه الشقة للسرقة والنهب

وفي الوقت نفسه كان التلفزيون السوري يغطي أنباء حالة مرض الفنان نهاد قلعي، ويذيع النشرات الطبية بأرقامها مع بعض الصور المتحركة له من المسلسلات والمسرحيات التي كان يقوم بتمثيلها، وفي آخر برقية بعثت بها ابنته مها إلى الأهل تقول إن صحه والدها تسير نحو الأحسن، وأنه أصبح لا يغيب عن الوعي، وبدأ يستعيد نطقه ولكن بشكل متقطع وبطيء جدا، وأن الأطباء متفائلون ويأملون أن تتحسن صحته خلال أيام قليلة إذا لم يحدث لا سمح الله ما ليس في الحسبان. وقال دريد لحام إنه متفائل بعودة النشاط والصحة إلى زميله الفنان، وبأن الثنائي دريد ونهاد سيعود بإذن الله أقوى مما كان.

حكاية دريد ونهاد

وحكاية الثنائي دريد ونهاد بدأت عام 1960 مع بداية التلفزيون السوري، عند افتتاحه بإدارة السيد صباح قباني الذي كان على علم بنشاط كل منهما الفردي. وكان دريد يومها يقوم بنشاط فني في إطار فرقه الطلاب الجامعيين، وكان نهاد يمارس نشاطا مماثلا في أحد الأندية الفنية الخاصة، واقترح مدير التلفزيون السابق صباح قباني الجمع بين الاثنين في عمل واحد، ونفذت الفكرة في برنامج كان اسمه "الإجازة السعيدة" وكانت مناسبة سعيدة تكررت أكثر من مرة لمدة سنتين، دون أن يكون دريد قد اهتدى بعد إلى شخصية ابن البلد الشعبي "غوار الطوشة" بقبقابه وطربوشه ونظارتيه ولهجته الشامية بالطبع. كما لم يكن نهاد قد اهتدى أيضا إلى شخصية "حسني البورظان" السمين الساذج الذي يتعرض دائما لمقالب وألاعيب غوار المضحكة.

وشخصيه "غوار الطوشة" ولدت بالصدفة في نهاية عام 1961، كما ولدت معها شخصية "حسني البورظان" خلال اشتراك دريد ونهاد في مُغنّاة مسرحية اسمها "عقد اللولو" التي تحولت فيما بعد إلى فيلم سينمائي مثلاه مع صباح وفهد بلان، وتقاضيا عنه مبلغ 1500 ليره سورية فقط من منتجه تحسين قوادري، بما فيها ثمن القصة والسيناريو والحوار. ومن نجاح فيلم "عقد اللولو" كانت انطلاقتهما السينمائية التي اعتبرت الحجر الأساسي لصناعة السينما السورية، والتي رفعت أجرهما إلى 150 ألف ليرة سورية عن الفيلم الواحد، عدا ثمن القصة وأجرة إعداد السيناريو ووضع الحوار.

إلى خارج الحدود

وعندما انطلقت شهرة الثنائي الكوميدي دريد ونهاد إلى خارج الحدود السورية، لتستقر في لبنان والأردن والمملكة العربية السعودية، انهالت عليهم العروض السينمائية المغرية، فمثّلا حتى الآن اكثر من 20 فيلما مع عناصر محلية وبعض نجمات السينما المصرية. من هذه الأفلام (عقد اللولو) مع صباح، (لقاء في تدمر) مع يسرى البدوية، (المليونيرة) مع صباح، (غرام في اسطنبول) مع سمورة، (الشريدان) مع ميادة، (النصابون الثلاثة) مع نبيلة عبيد، (خيّاط للسيدات) مع شادية، (الصعاليك) مع مريم فخر الدين، (الرجل المناسب) مع ناديه لطفي، (واحد زائد واحد) مع سهير المرشدي، (الثعلب) مع نوال أبو الفتوح، (الصديقان) مع نجلاء فتحي، (امرأه تسكن وحدها) مع إغراء، (مقلب في المكسيك) مع منى واصف، (زوجتي من الهيبز) مع هويدا، (المزيفون) مع طروب، (غوار جيمس بوند) مع صباح جزائري، (صح النوم) مع نجاح حفيظ. كل هذه الأفلام السينمائية اشترك نهاد مع دريد في تمثيلها بالإضافة إلى عدد من المسلسلات التلفزيونية والمسرحيات الانتقادية، وكان في بعض الأحيان يتقاضى أكثر من دريد لاشتراكه في وضع السيناريو أو إعداد الحوار، ومع ذلك فإنه لا يملك في هذه الدنيا سوى الشقة التي اختارها لراحته ولآخرته في لبنان، بعد أن جمع أثاثها من العواصم الأوروبية التي كان يزورها، لتتناسب مع مكانته وإحساسه المرهف كفنان. وقد تعرضت هذه الشقة للسرقة والنهب في بداية الأحداث، وكانت من أهم الاسباب التي كادت تخنق هذا الفنان.

صحيفة (الجزيرة) السعودية 1976/10/6

الملف

نهاد قلعي و يوسف حنا

ثلاثون عاما من الغياب

نهاد قلعي لـ: «هنا دمشق»

حسني البورظان أتعبني كثيرًا

أنا نادم على كل أعمالي السينمائية

كوميديا الابتسامة تدعو إلى التأمل

حين التقيت نهادا مهيبا رغم المرض ، طامحا رغم المحنة ، تذكرت قول أبي رشيد حين مر بصرح اجتاحه الدمار فلم يزده الا جلالا وجمالا :

هنا ينفض الوهم أشباحه
وينتحر الموت من يأسه

كان الحزن سحابة تغيم على وجه نهاد قلعي ، ربما لانه وجد نفسه غير قادر على العطاء الذي اعتاده ·· قلت له :

● هل أنت حزين ؟

ـ لابد للفنان من الحزن ·

● يقال أن كبار فناني الكوميديا حزانى ··

ـ صحيح ·· بشكل عام لا يخلو الانسان من الالم ··

● أن نعبر عن الحزن بما هو تراجيدي ، أو غنائي ، فهو أمر عادي ولكن كيف يتحول الحزن الى بسمه ·· الى كوميديا لدى الفنان ؟

ـ هذا قدر الفنان ، فهو يرتبط بجمهوره ، مطلوب منه أن يقدم له المتعة ··

● الا ترى في تحول الحزن الى ابتسامة ، فلسفة للحياة ؟

ـ طبعا ! ··

● حدثني عن البدايات ··

ـ من خلال ناد للهواة ، أسسناه مع بعض الزملاء ، بدأنا طريقنا مع المسرح ·· كنا ندفع من جيوبنا تكاليف المسرحية وخسائر العرض ··

● متى بدأ قسم الاحتراف ·· وما طبيعة النصوص التي تعاملتم معها ··

ـ احترفت عام ١٩٥٩ ، قدمت اعمالا درامية واخرى كوميدية ، واعتمدنا على النصوص الاجنبية المترجمة · ·لم يكن هناك تأليف محلي بعد ذلك قدمنا أعمالا هامة من خلال المسرح القومي··

● بعد المسرح القومي طلع علينا نهاد قلعي بشخصية متميزة هي ـ حسني البورظان ـ ما علاقة نهاد بحسني ؟

ـ حسني جزء مني ·· شخصية أحبها الناس ولذلك أحببتها ·· ولكنها سببت لي الكثير من المتاعب فهناك بعض الناس يسيئون تقدير الفن والفنان بعضهم يعتقد أن ـ حسني البورظان ـ مثلا جاهز تحت أمرهم دون أن يعطوا لكل وقت حقه ·· اسمح لي أن أروي لك هذه الحادثة·· حين كنت في ذروة مرضي ، ويدي

مربوطة الى عنقي ، مسافرا الى الاردن، متوقفا في استراحة الرمثا أتناول القهوة ، صاح بي أحدهم من بعيد دون أن يقدر حالتي : (بورظان ، بورظان ، هادا غوار ضل لاحقك بالمقالب حتى عمل فيك هيك ..

تألمت جدا وهو يستهين بي أمام الناس جميعا ، قلت له : هالمرة حرام نظلم غوار .. ماله علاقة فيهالمقلب.. هدا من الله .. قال : ليش الله بيعمل مقالب .. قلت : أحيانا ، هاي خلقك) ..

● أعتقد أن هذا النموذج من الناس نادر ، ولكن الكثرة تقدر أن شخصيتي حسني البورظان وغوار الطوشه قد عالجتا بجدية من خلال الكوميديا الراقية كثيرا من مشكلات المجتمع الراهنة .. والناس يذكرون باحترام كبير الاعمال الهامة التي قدمتموها ..

– أعتز أننا قمنا بواجبنا ..

● أعمالكم الكوميدية .. أقصد دريد وأنت وفرقتكما .. كانتم تدعو الى الابتسام أكثر مما تدعو الى القهقهة ما الفارق بينهما في نظرك ؟

– القهقهة تنسي المتفرج كل شيء ، الابتسامة تدعو الى التأمل ، مع الضحك الشديد تضيع الافكار ..

● هناك ثلاث محاور للحديث معك .. السينما ، المسرح ، التلفزيون ، أيها استهواك أكثر ؟

– بكل أسف أقول لم نعط شيئا في السينما ، أنا نادم على كل أعمالي السينمائية ، أما المسرح فهو الاساس انه مدرسة الفنان ، وانا اعتز به رغم ان التلفزيون أعطانا أكثر من المسرح، فيه انطلقنا خارج الحدود ..

● كيف تعرفت الى دريد لحام ؟ هل كان اللقاء عفويا ؟

– تعرفت الى الاخ دريد منذ بداية تأسيس التلفزيون .. لم يكن لقاؤنا مصادفة ، بل رسمه الدكتور صباح قباني مدير التلفزيون انذاك وكان يعرف الطرفين ..

● كيف استطعتم صهر اسلوبكم في اسلوب واحد ..

– كنا ملتزمين أمام الجمهور ..

● شاركت في مختلف الاعمال الفنية .. اذكر أنك كتبت أيضا ؟

– اشتركت دريد وأنا في الكتابة في أكثر أعمالنا كنا مجبرين ، لم نجد من يكتب لنا الى الان .

● وفي الاخراج ، هل اضطررتم للاخراج أيضا ؟ أقصد دريد ..

– ما في شك .. ليس في الاخراج المسرحي . نحن ضربنا الاخراج السينمائي ، حيث كانت افلامنا تافهة .. مخرج المسرح ليست له سيطرة مخرج السينما .. في المسرح تنتهي مهمة المخرج عند رفع الستارة..

● اخر أدوارك كان في – غربة – شعرت وأنا أشاهد العرض أن دورك لم يمكنك من أن تعطي كل ما لديك .. ما رأيك ؟

– ربما لم يعطني الدور ، فقد كان صغيرا ..

● لم أقصد الدور في الطول أو او القصر ..

– ربما كان لدي هذا الاحساس ، لكني لا أستطيع أن أعترض ، لاني اذن يجب أن أناقش الكاتب والمخرج.. كنت أتمنى لو أن الدور أعطاني مجالا كي أشتغل فيه أكثر ..

● هذا لا يمنع من أن نعترف أنك امتلكت فيه حضورك المسرحي المتميز فقد كان العمل ناجحا .. أعود الى ما قلت لي حين ذكرت أنكم لم تجدوا الكاتب الذي يكتب لكم حتى الان ..

– عنيت في ذلك الوقت .. أما الان فالامر يختلف

● بعيدا عن صلتكم بمحمد الماغوط – الشاعر والكاتب المعروف – هل حاولتم تقريب بعض الكتاب الاخرين الى اسلوبكم ..

– لم نحاول أن نتصل بهم ..وربما لو أننا اتصلنا لوجدنا بعض الكتاب..

● وفي الاخراج ..

– دريد له اسلوب متميز عن الجميع ..

● ألا يستطيعه المخرجون الاخرون

– لي ملاحظة ، بالنسبة لمسرحيتنا ، فقد غلب عليها عمل المنوعات أكثر من الدراما ..

● أخشى أن يكون الحديث أتعبك .. هل نستريح قليلا ؟ ..

★ ★ ★

● حين انقطعت عن الفرقة – فرقة تشرين – بسبب المرض .. أعلنت الفرقة أن اسمها الجديد فرقة نهاد قلعي .. هل سررت بذلك ؟

– سررت وتألمت في ان واحد .. سررت لانه وفاء الاصدقاء ، وتألمت لانني كنت عاجزا عن العمل في الفرقة.

● والان .. هل نعلن للجمهور عن اقتراب عودتك للعمل والعطاء بعد هذا التوقف العابر وبعد عودة العافية؟

– ان شاء الله ..

● اخر علمي انك وظيفيا كنت مديرا للمسرح القومي .. ثم ما الوظائف التي شغلتها بعد ذلك ؟

– لم أتابع في تلك الوظيفة ..

● تعني أنك غير موظف الان لا في الاعلام ولا في وزارة الثقافة ؟

– نعم أنا غير موظف في أية جهة ..

● هل شملك مرسوم الفنانين ..

– لا ، لم يشملني هناك مساع تبذل الان .

● هذا يعني .. انه يمكن أن نتساءل ماذا عن المستقبل اذن ؟ ما دمت غير موظف في جهة تتقاضى منها دخلا ..

– .....

● في انتظار ، أن يعود الفنان الكبير نهاد قلعي الى عطائه والى رفد حياتنا المسرحية والفنية .

« م »

مجلة (هنا دمشق) 1/3/ 1978

الملف

نهاد قلعي و يوسف حنا
ثلاثون عاما من الغياب

عزاي لك يا غوار

د. رياض عصمت

عزيزي غوار الطوشة:

اسمح لي أن أعزّيك. وعزائي لك نابع من حزن عميق مشترك بيننا، فأنت بفقدانك حسني البورظان لن تستطيع بعد الآن إمتاعنا بمقالب جديدة ومؤامرات طريفة ضده.

لقد فقدتَ الخصم والحافز والمنافس، وأصبحتَ إنساناً ناضجاً، عاقلاً، ووحيداً. عندما أدخلناك إلى قلب بيوتنا، وأحببناك، وغفرنا لك، وتعاطفنا معك، فإننا فعلنا ذلك لأن شريكك حسني لم يكرهك، ولم يضمر لك ما لا يظهره، بل كان طيب النية وصادق الشعور مثل طفل كبير الحجم. وما كان أسهل من تعرضه لمقالبك، رغم أبو صياح، وفطوم حيص بيص، وبدري بك أبو كلبشة، وياسينو، وأبو عنتر، وعبدو... وغيرهم العديد من الشخصيات الظريفة.

ذات يوم، يا صديقي، رن جرس الهاتف في منزلي. كان على الطرف الآخر الكاتب الذي أبدعها جميعاً: نهاد قلعي. سألني مستنجداً بذاكرتي وسط ما يبدو انه لقاء صحفي: ما اسم مسرحية برناردشو عن نابليون التي مثلت فيها...!؟ قلت: ((رجل الأقدار)) شكرني بحرارة وأغلق الخط. فكرت: كم تبدو لهذا العنوان دلالات مختلفة الآن. الأقدار وحدها قادت خطا هذا الفنان المسرحي الجاد إلى تأليف وتمثيل الكوميديا التلفزيونية. نجاحه هناك على المسرح القومي – كما يذكر الناس – لم يكن إطلاقاً أقل من نجاحه في الإضحاك. ولعل ذلك يعود إلى أن نهاد قلعي – وليس حسني البورظان – شخص خفيف الظل في الحياة، ممتع الصحبة، رائع النكتة. تارة تذكره في ((البورجوازي النبيل)) لموليير وتارة في ((المفتش العام)) لغوغول، وتارة في ((حمام الهنا)) و ((مقالب غوار)) و ((فندق صح النوم)) تلفزيونياً، وفي ((ضيعة تشرين)) و ((غربة)) مسرحياً.

شريكك، يا عزيزي غوار، كان عظيماً، لأنه استثمر ثقافة نهاد قلعي الواسعة في أعمال ذات نكهة شعبية أصيلة، بحيث أصبحت جزءاً من ضمير الناس، وجرعة ترفيه ضرورية وسط حياتهم الروتينية. وأنت، يا غوار، خضت مع حسني بحور النجاح ومستنقعات الفشل. لكن دريد لحام أثبت مع الزمن أنه أكبر من غوار... خاصة في السينما.

يوم أصيب نهاد قلعي خلال شجار عابر في مقهى، عاشت دمشق صدمة قاسية، ما لبثت عدواها أن استشرت في سورية، ثم في جميع أرجاء الوطن العربي. تردد خاطر واحد مزعج: "حسني البورظان في خطر" وتساءل الناس: "هل يغيب حسني البورظان...؟ هل يستطيع غوار أن يصمد وحده...!؟" كان كلاكما في أذهان الناس قيمة واحدة، وثنائياً عجيباً. وفي اعتقادي أن غوار بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة منذ مرض نهاد قلعي، ليحل محله دريد لحام في شخصيات متنوعة، لكنها شخصيات تحمل شيئاً من الشر والخبث والأذى، سواء في (وادي المسك) أو في (الدغري) وهي سمات كان غوار منها براء، بالرغم من كل مقالبه الصبيانية.

حاول حسني البورظان أن يعود، كما حاول غوار ضمنياً. كانت عودة كل منكما مطلباً جماهيرياً ملحاً، إذ تنبض بحبكما ملايين القلوب، وتشتهي سلسلة تلفزيونية جديدة تعيد الدفء إلى السهرات، وتجمع الأسر في البيوت.

حاول حسني البورظان أن يعود، لكن لم يوفق. وحاولت يا غوار بحذر، ثم تراجعت. لم يكن ممكناً أن يتواجد غوار دون حسني، ولم يكن ممكناً أن يتواجد حسني دون غوار. كان الثنائي انطبع في أذهان الناس، ولكن الأقدار أقوى من الرغبات.

أعزيك، يا غوار، لأنني أدرك حزنك الدفين وأنت تودع شريك انطلاقتك الأولى إلى مثواه الأخير. كنت تودع جزءاً من ذاتك، وتدفن في هوة القبر ذكرياتك. كم هو صعب أن يغير غوار جلده، ويخرج إلينا من جديد دون البورظان. دريد لحام وجد نفسه لفترة طويلة من الزمن مع محمد الماغوط، وحقق إنجازات مسرحية، ثم سينمائية بوجه خاص عندما بدأ يخرج لنفسه. ودريد لحام قادر على الدخول في جلد شخصيات إنسانية مختلفة، وإنضاج كوميدياه يوماً بعد يوم. لكن غوار الطوشة ليس قادراً على ذلك. وإذا كان دريد لحام قد أعلن اعتزاله العمل المسرحي، فإن غوار الطوشة اعتزل الفن بأكمله منذ الكارثة التي حلت بنهاد قلعي قبل سنين عديدة.

رحل نهاد قلعي عن عالمنا، كما رحل قبله حسني البورظان. انفرط عقد ثمين من نجوم كبار امتعونا، والفتهم أرواحنا. انفرط عقد... كدمعات على خدودنا ونحن نودع رفيق صبانا جميعاً... الفنان العظيم والشخصية الفذة التي عشقناها جميعاً.

صحيفة (البعث) 24 /10/ 1993

الأقدار وحدها قادت خطا هذا الفنان المسرحي الجاد إلى تأليف وتمثيل الكوميديا التلفزيونية. نجاحه على المسرح القومي لم يكن إطلاقاً أقل من نجاحه في الإضحاك.

لم يكن ممكناً أن يتواجد غوار دون حسني، ولم يكن ممكناً أن يتواجد حسني دون غوار. انطبع الثنائي في أذهان الناس، ولكن الأقدار أقوى من الرغبات

شهد له الجميع بتجرده في قول رأيه المختلف وتساميه عن الشللية

يوسف حنا

شاعر الأداء الدرامي

بقلم: محمد منصور

لا يمكن الحديث عن البدايات التأسيسية للمسرح القومي، والسينما والدراما التلفزيونية السورية، التي انطلقت جميعها في سنوات الستينيات من القرن العشرين، دون الإشارة إلى الحضور الهام للفنان يوسف حنا، أحد الوجوه التمثيلية البارزة، التي حاولت رسم فلسفة خاصة لها في الأداء في كل هذه القنوات، استناداً إلى ثقافة أكاديمية واطلاعية معمقة، وإيمان حقيقي بأن فن التمثيل هو مزيج من الموهبة والثقافة والدأب والاجتهاد.

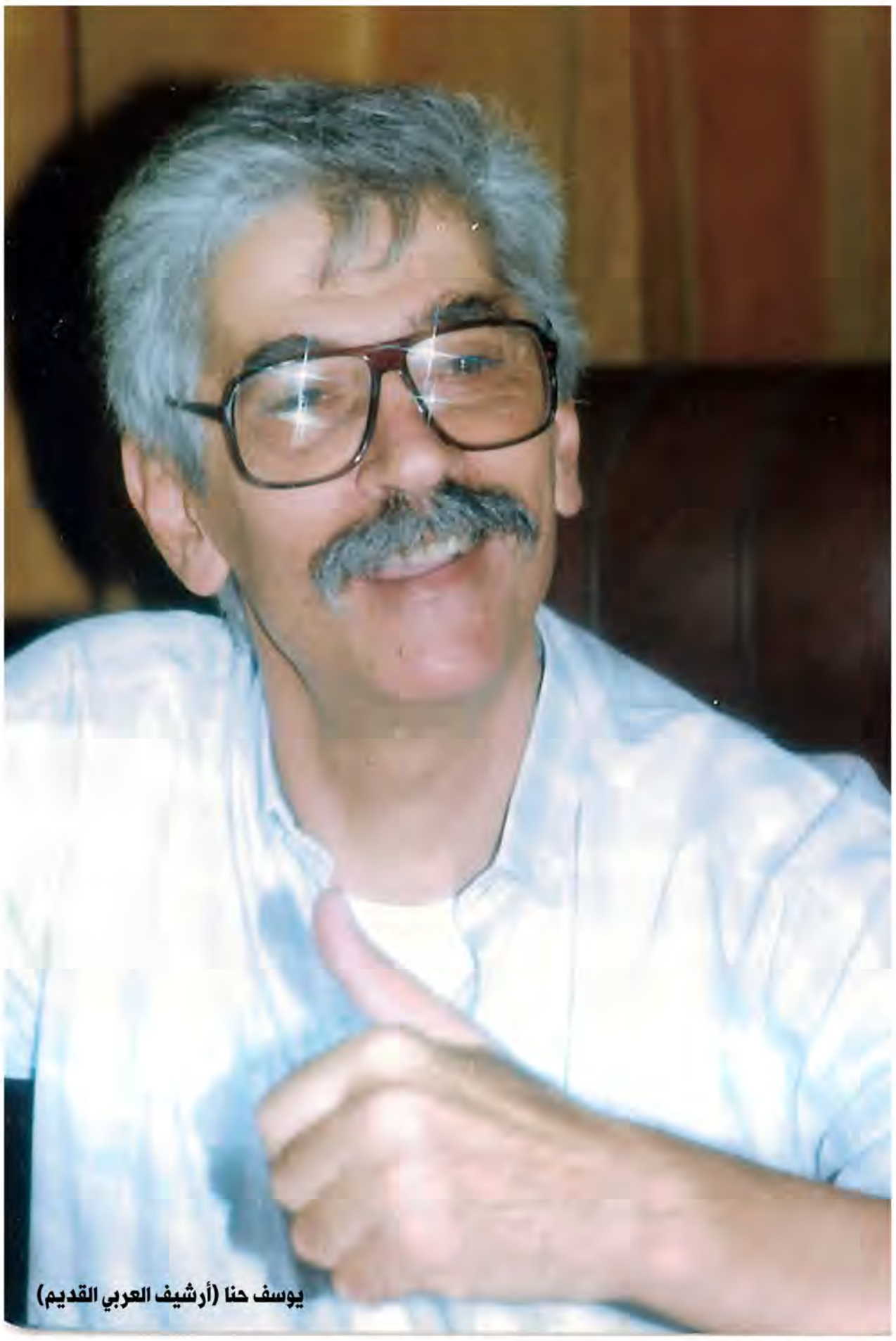
يوسف حنا (أرشيف العربي القديم)

المسرح كمختبر ثقافي

الفنان يوسف حنا الذي رحل عن عالمنا عام 1993 وهو يشغل منصب مدير المسرح القومي في سوريا، هو من مواليد مدينة عكا في فلسطين عام (1940)، وقد هاجر مع عائلته، مثل كثير من أبناء فلسطين الذين وجدوا في دمشق، وباقي المدن السورية الحضن والملاذ الدافئ، في ذلك الزمن المتوهج بمشاعر التضامن القومي.

في جامعة دمشق درس يوسف حنا الأدب الإنكليزي، لكن هواه المسرحي أطل باكراً، وهو طالب جامعي، فانتسب في التاسعة عشرة من عمره إلى (ندوة الفكر والفن) التي أسسها رفيق الصبان عام 1959.

الفرقة التي عرفت باهتماماتها في تقديم كلاسيكيات المسرح العالمي، وانشغالاتها بالحوارات الأكاديمية، حول دور المسرح ووظيفته في الارتقاء بذائقة الناس، والتي شكلت صدمة في الوسط الفني السوري في حينه، لأنها جاءت عكس التيارات الشعبية المسرحية السائدة، وجد فيها يوسف حنا ضالته المنشودة، لأنها كانت تشبع لديه هوساً فنياً استمر معه، حتى السنوات الأخيرة من عمره: تشريح فن التمثيل، وفهم أصول الأداء، وتطوير سبل فهم الممثل للشخصية التي يؤديها.

كانت (ندوة الفكر والفن) مختبراً لتلك النقاشات، ولنوعية المسرح الذي تحتاجه الحركة الفنية، وهي تنحو منحى ثقافياً، لكن إنجازات هذه الفرقة على أرض الواقع، كانت محدودة في المحصلة، لأنها لم تفكر في اجتذاب شرائح واسعة من الجمهور، واعتبر منظروها أن على الناس أن تطور ذائقتها، بحضور تلك العروض التي تقدمها الفرقة، دون أي إعداد محلي، عوضاً عن أن تقترب الفرقة من الجمهور، وتأخذ بيده!

أما بالنسبة للممثلين، فيبدو أن (ندوة الفكر والفن) غدت مختبراً ثقافياً هاماً، عدا عن أنها كانت بوابة عبور، مرة إلى العمل التلفزيوني، حين انضم أعضاؤها إلى التلفزيون، بعد اشتغال الدكتور رفيق الصبان فيه، وقد أصبح اسمها (فرقة الفنون الدرامية للتلفزيون) وأخرى للمسرح القومي، حين عاد أفرادها للانضمام رسمياً للمسرح القومي عام 1966.

في جامعة دمشق درس يوسف حنا الأدب الإنكليزي، لكن هواه المسرحي أطل باكراً، فانتسب في التاسعة عشرة من عمره إلى (ندوة الفكر والفن) التي أسسها رفيق الصبان عام 1959.

عندما انضم إلى المسرح القومي، غدا واحداً من أبرز الممثلين الذين رفدوا تجربته، فقدم فيه عشرات الأدوار الهامة التي شهدت بأصالة موهبته وعمق ثقافته

لعب يوسف حنا منذ البداية العديد من الأدوار المسرحية الكلاسيكية الهامة، كدوريه في مسرحيتي (أنتيغونا) و(ماكبث) للدكتور رفيق الصبان، وكانت له مساهمات في المسرح القومي، قبل أن ينتقل إليه رسمياً، وعندما انضم إلى المسرح القومي، غدا واحداً من أبرز الممثلين الذين رفدوا تجربته الفنية، فقدم فيه عشرات الأدوار المسرحية الهامة التي شهدت بأصالة موهبته، وعمق ثقافته بدءا بـ (الشرك) إخراج خضر الشعار 1964- و(عرس الدم- التنين- السيل- الملك العاري- سيزيف الأندلسي- سهرة مع أبي خليل القباني-رقصة التانغو) إخراج أسعد فضة (زيارة السيدة العجوز- موتى بلا قبور- احتفال ليلي خاص لدريسدن- الغرباء- أيها الإسرائيلي حان وقت الاستسلام) إخراج علي عقلة عرسان، (أغنية على الممر- جان دارك- كفر قاسم) إخراج محمد الطيب (الممثلون يتراشقون الحجارة) إخراج يوسف حرب (القضية) إخراج شريف شاكر، وانتهاء بـ (حرم سعادة الوزير) إخراج أسعد فضة، الذي أعيد في ثلاثة مواسم كان آخرها عام 1990، وكان هذا آخر ظهور ليوسف حنا على خشبة المسرح.

كما كانت له تجارب هامة في العديد من الفرق المسرحية الأخرى، كما نرى في فرقة المسرح التي تأسست في نهاية الستينيات، حيث قدم (حفلة سمر من أجل 5 حزيران) إخراج علاء الدين كوكش عام 1970، و(رأس المملوك جابر) تأليف وإخراج سعد الله ونوس 1972، وفي فرقة المسرح التجريبي التي تأسست في منتصف السبعينيات، بجهود سعد الله ونوس، وفواز الساجر، حيث أدى يوسف حنا شخصية حنظلة في عرض (رحلة حنظلة) الذي أعده سعد الله ونوس، وأخرجه فواز الساجر عام 1979، وكان له إلى جانب هذا كله مساهمة ختامية في مسرح الماغوط، ودريد لحام، حين شارك في مسرحية (شقائق النعمان) بطولة وإخراج دريد لحام 1987.

عبر كم كبير من الأدوار استطاع يوسف حنا أن يقدم شخصيات متنوعة، بين التراجيديا، والكوميديا الساخرة أحياناً، كما في (رحلة حنظلة- رقصة التانغو- حرم سعادة الوزير)، وتنقل بين الشخصيات الكلاسيكية

الملف

نهاد قلعي و يوسف حنا
ثلاثون عاما من الغياب

الفنان يوسف حنا مع دريد لحام في مسرحية (شقائق النعمان) 1987 (أرشيف العربي القديم)

والشعبية، وقد عبّر على الدوام عن عشقه، وإخلاصه لفن التمثيل الذي صرف له كل سنوات عمره تقريباً، إلا أنه خاض ذات مرة تجربة إخراجية يتيمة، حين قدم مطلع العام 1987، نص مارسيل بانيول (توباز) في عرض للمسرح القومي، وقد كان يوسف حنا يفكر في خوض تجربة الإخراج مرة ثانية، من خلال تقديم مسرحية (الأشجار تموت واقفة) إلا أن غزارة عمله التلفزيوني في السنوات الأخيرة من حياته، واشتداد المرض الذي أنهك جسده النحيل، لم يمهلاه حتى يحقق مشروعه، فرحل دون أن يقدم تصوراً آخر، لتجربة الإخراج المسرحي.

تعبير سينمائي حي

وفي السينما استطاع يوسف حنا أن يحصد العديد من الفرص العامة، رغم قلة الإنتاج السينمائي في سورية عموماً، فقدم بين عامي (1969- 1993) ثلاثة عشر فيلما سينمائياً كان أولها في فيلم (الرجل) للمخرج فيصل الياسري، والمقتبس عن قصة (قيامة أليعازر) لسعيد حورانية، والذي كان أول فيلم سينمائي روائي ينتجه التلفزيون السوري، كما شارك في أول فيلم روائي تنتجه نقابة الفنانين، وهو (المطلوب رجل واحد) إخراج اللبناني جورج نصر عام 1975 فيما كان حاضراً في عشرة أفلام من إنتاج المؤسسة العامة للسينما، كان أولها (الميلاد) ليوسف شاهين، ضمن ثلاثية (رجال تحت الشمس) عام 1970، وآخرها (شيء ما يحترق) للمخرج غسان شميط عام 1993، والذي عرض في مهرجان دمشق السينمائي، بعد رحيله بأسابيع. أما سينما القطاع الخاص، فلم تجتذب يوسف حنا كثيراً، ولم تقتصر مساهمته فيها سوى على تجربة يتيمة هي (راقصة على الجراح) إخراج محمد شاهين عام 1973.

وبخلاف تجربته المتنوعة في المسرح أو في الدراما التلفزيونية كما سنرى لاحقاً، فقد انحصرت أدوار يوسف حنا السينمائية، بين التراجيديا، والدراما الاجتماعية بقضاياها المختلفة، ولهذا استطاعت السينما أن تبرز قدراته التعبيرية الخاصة التي كثف من خلالها صورة شديدة الرقي لمشكلات الشخصيات التراجيدية التي جسدها، وصوّر ببلاغة قلقها وهواجسها الدفينه، عبر عينين تشيان بكل المعاني أمام الكاميرا، فتختزل أوجاع كل الشخصيات وملامحها، والتي كان آخرها شخصية (أبو رمزي) المواطن الجولاني الذي يعيش مرارة الغربة والحنين إلى أرضه، وسط ألم الاحتلال، واختلال موازين العدل من جهة، وتفشي قيم الفساد الاجتماعي في وطنه الأم من جهة أخرى.

نجم الأدوار التلفزيونية الصعبة

لم يكن يوسف حنا في يوم من الأيام نجماً بالمفهوم التلفزيوني السائد، والذي ظل مرتبطاً لسنوات طويلة بمفهوم الفتى الأول، لكن يوسف حنا كان بشهادة المخرجين الذين عمل معهم، والأدوار الكثيرة التي أداها نجم الأدوار الصعبة، والشخصيات التي تحمل فلسفة خاصة في الحب والحياة والوطنية، ولاشك أن يوسف حنا كان قادراً على تبني فلسفة تلك الشخصيات، لأنه كان من أكثر الفنانين مهارة، في تبني أفكار الشخصيات الدرامية، وتجسيدها بإيمان يذوب فيه الحد الفاصل بين فكر الممثل، وتفكير الشخصية، كما نراها على الشاشة.

وقد ارتبط حضور يوسف حنا التلفزيوني بداية بالمخرج علاء الدين كوكش الذي عمل معه على المسرح في (حفلة سمر) والذي قدمه على

استطاعت السينما أن تبرز قدراته التعبيرية التي كثف من خلالها صورة شديدة الرقي لمشكلات الشخصيات التراجيدية التي جسدها، وصوّر ببلاغة قلقها وهواجسها الدفينه، عبر عينين تشيان بكل المعاني أمام الكاميرا

كان من أكثر الفنانين مهارة في تبني أفكار الشخصيات الدرامية، وتجسيدها بإيمان يذوب فيه الحد الفاصل بين فكر الممثل، وتفكير الشخصية

مع كل عمل جديد كان يشعر كل مخرج تقريباً أن هناك دوراً يحتاج يوسف حنا

مدار الستينيات والسبعينيات والثمانينيات في مسلسلات: (أرشيف أبو رشدي- وجهاً لوجه- حارة القصر- أولاد بلدي- أسعد الوراق- جابر وجبير- وضاح اليمن- أم عمارة- الهرّاس-حصاد السنين)

الهواجس المعاصرة لشريحة الشباب، كما جسدها يوسف حنا في بعض أدواره التلفزيونية الأولى، تتجلى في الشخصيتين الهامتين اللتين أداهما في مسلسلي (حارة القصر) و(أولاد بلدي) فهاهنا نعثر على صورة شاب مثقف، يبحث عن معنى جديد للحياة والحب، وإثبات الذات، ويشعر بحساسية شديدة تجاه التناقض، بين القول والفعل في حياة الشباب المثقف، ولعل أهمية عمل يوسف حنا على مثل هذه الشخصيات تكمن، في تخليصها من المباشرة، والاستظهار الببغائي لأفكار الكاتب، مقابل السعي المستمر، لإكساء تلك الأفكار بطريقة معينة في الأداء والإحساس، تعتمد الحركة التراجيدية البطيئة، والنبرة التأملية في قول المعاني والأفكار ممزوجة بمسحة قلق شكسبيري ظل متأصلا في عيني يوسف حنا على الدوام.

إلا أن صورة يوسف حنا الشاب، سرعان ما توارت خلف كم من الأدوار التي لم تكن أبداً ترتهن لحجم الدور، فقد كان يوسف حنا يقدم حالات أكثر منها أدواراً وشخصيات، ففي كثير من الأدوار التي قدمها هناك سر وإشكال يصنع مفهوماً خاصاً للحياة... في (أسعد الوراق) مثلا يؤدي شخصية (عبد الحي) الهارب من الحكومة، الذي يفجّر في شخص أسعد الوراق لحظة الشجاعة التي ختم بها آخر مشاهد حياته، بعد أن ينقل له فلسفته الخاصة حول الحياة، والموت والبطولة والخوف، وفي (انتقام الزباء) يؤدي يوسف حنا شخصية (عمرو بن الظرب العمليقي) والد الزباء، في الرواية التاريخية التي ذكرها المؤرخون العرب عن الملكة زنوبيا.. وهاهنا يقدم يوسف حنا، شخصية ملك يسعى لتوريث الملك لابنته من بعده، في إيمان خاص بقدرة المرأة على الحكم، ويضفي يوسف حنا على هذه الرؤية الكثير من الألق والنبل، وهو نبل يتوهج في أدائه، حين يواجه الموت شجاعاً وأبياً، في مواجهة محاولة جذيمة الأبرص إذلاله قبل قتله!

ممثل يلهم المخرجين!

ومن يتأمل في قائمة الإنتاج الدرامي التلفزيوني السوري عموماً، سوف يلاحظ أن يوسف حنا من نوعية خاصة من الفنانين الذين شكلوا إلهاماً مستمراً لمعظم المخرجين، بمعنى أنه مع كل عمل جديد، كان يشعر كل مخرج تقريباً أن هناك دوراً يحتاج يوسف حنا، ولهذا سرعان ما غدا خياراً مفضلا لدى العديد من المخرجين الهامين، أمثال المخرج غسان جبري الذي قدمه في بدايات عمله التلفزيوني في تمثيليات (أمل بالغد- جثة على الرصيف- عيوش)، ثم في مسلسلات (المطر والحياة- انتقام الزباء- طرفة بن العبد- طبول الحرية) وفي سنوات الثمانينيات والتسعينيات حقق يوسف حنا حضوراً متميزاً في أعمال المخرج هيثم حقي (عز الدين القسام- بصمات على جدار الزمن- حرب السنوات الأربع- غضب الصحراء- صور اجتماعية- هجرة القلوب إلى القلوب- الدغري- موزاييك)، وقد أوضح هيثم حقي حالة الإلهام التي يشكلها يوسف حنا لأي مخرج يتعامل معه، في شهادة كتبها إثر رحيله، بطلب من كاتب هذه السطور، قال فيها:

"حين بدأنا التعاون معاً من خلال مسلسلات (عز الدين القسام- بصمات على جدار الزمن- حرب السنوات الأربع) أصبحت من المولعين به فناناً وإنساناً، ثم مع مرور السنوات والأعمال، حيث لم يمر عمل من الأعمال التي أخرجتها لم يشارك به يوسف حنا، سوى مسلسل (دائرة النار)، لأنه كان مشغولا بمسرحية (شقائق النعمان) التي كانت تتطلب سفره الدائم، أدركت كم من الصعب أن يجد الإنسان صديقاً كيوسف حنا، وكم من الصعب أن يجد ممثلا مجتهداً ومخلصاً لمهنته، باحثاً في كل جوانبها مثله". (1)

فن الممثل في التلفزيون

وقد عمل يوسف حنا بكثافة في التلفزيون، وآمن به منذ البداية، بخلاف الكثير من الفنانين الذين كانوا يعتبرون أن دراما التلفزيون فن استهلاكي لا يتيح للممثل التعبير عن طاقاته الإبداعية فيه، ولذلك نراه يقول في حوار صحفي مع كاتب هذه السطور:

(التلفزيون هو العصر، وعصرنا هو عصر التلفزيون، من هذا المنطلق يجب أن نتعامل مع التلفزيون بطريقة أو بأخرى، فهو أداة فنية عنصرها الأساسي الممثل، وفن الممثل يترعرع في التلفزيون). (2)

ومن يتعمق في تحليل هذا الرأي، لممثل مسرحي النشأة والهوى، ولفنان أكاديمي مثقف، تربى على أن الكتاب هو مصدر الثقافة، سوف يدرك أن إخلاص يوسف حنا لمهنته، قاده لأن يفهم بدقة واقعية، موقع فن الممثل في دراما التلفزيون، وآفاق تطوير هذا الفن مستقبلا، ولهذا نراه في السنوات الأخيرة من حياته، وهو يعمل في عشرات الأعمال التلفزيونية، ويقدم تنويعات جديدة، ومختلفة على أدواره السابقة التي قدمها، فإلى جانب الشخصيات المثقفة والإشكالية ذات الطابع الخاص، والرؤية الحياتية المختلفة التي قدمها في (أرملة الجافل) مع المخرجة رويدا الجراح عام 1982وفي رباعية (أحزان عادية) من تأليف وإخراج شقيقته الصغرى أمل حنا عام 1988، قدم يوسف حنا شخصيات جديدة عليه تماماً، كما نرى في شخصية الثائر النقي عبد الرحمن في مسلسل: (أبو كامل) مع علاء الدين كوكش، وشخصية الرجل الشعبي البسيط في مسلسل (الخشخاش) مع بسام الملا، وشخصية القروي الجشع والمرابي في مسلسل (الشريد) مع غسان باخوس، والتي قدم فيها تلوينات كوميدية شعبية واضحة، إلا أن تجسيده لدور المعارض السياسي (قدري أفندي) المهووس بالاختلاف والمعارضة، في المسلسل الكوميدي (الدغري) أمام الفنان دريد لحام، ومن إخراج هيثم حقي، أكد قدرة يوسف حنا على الأداء الكاريكاتوري الكوميدي البارع، وتلك الجرأة التي كان يتحلى فيها، في خوض غمار أي تجربة فنية جديدة يمكن أن يقدم فيها مقترحاً جديداً ومتطوراً، في التعامل مع الشخصية التي تعرض عليها، ومع المهنة التي أحبها، وعبّر مراراً عن احترامه الشديد لها.

فارس الحب النبيل

استمر يوسف حنا مؤثراً في المشهد التلفزيوني السوري، حتى قبيل أسابيع قليلة من رحيله، فقد عمل في سنوات التسعينيات مع سليم صبري في (شجرة النارنج)، ومع هند ميداني في مسلسل (أحلام مؤجلة)، ومع مأمون البني في (اختفاء رجل- المليونير الصغير)، وكان مسلسل (البديل) مع المخرج محمد فردوس أتاسي آخر أعماله، وفي الفيلم التلفزيوني (التكريم)، ضمن سلسلة (موازييك) للمخرج هيثم حقي، وهي من الأعمال الأخيرة التي عرضت له... كان يوسف حنا يجسد شخصية شاعر، يأتي من بلدته البعيدة لزيارة صديقه العالم الكبير الذي أصيب بالشلل، ولحضور حفل التكريم الذي سيقام له، وقد كان يوسف حنا، في أجمل حالات الألق والحضور، وهو يؤدي دوراً مغلفاً بالمشاعر النبيلة، وبشاعرية الموقف والرؤية والأداء، وأذكر أن الكثير من المقالات الصحفية قد توقفت عند أداء يوسف حنا، وكأنها كانت ترى صورة من صور نضجه الأخير، وقدرته على إعطاء الدور حجماً أكبر من مساحته. والحق أن يوسف حنا كان يعي تلك المعادلة الصعبة التي يعمل من خلالها، معادلة النهوض بأدوار تحمل جزءا من مقولة ورسالة أي عمل، رغم أنها ليست أدوار بطولة أولى.

ولو أضفنا إلى ميزات يوسف حنا في الثقافة والفهم والموهبة، تلك المسحة الإنسانية النبيلة في صياغة توافقاته واختلافاته مع الآخرين، وذلك الغضب الرقيق والحب العميق الذي ميز انتقاداته لزملائه، أو لأعمال عمل فيها، لكان بإمكاننا أن نكتشف لماذا خرج يوسف حنا من الوسط الفني السوري، خلال ثلاثة عقود من العمل المتواصل بلا عداوات تقريباً، فقد شهد له الجميع بتجرده في قول رأيه المختلف، وبتساميه عن الشللية والحروب الصغيرة، وبقدرته على توصيل أكثر الآراء حدة، بأكثر الأساليب مرونة ومودة وعمقاً.

لقد عمل يوسف حنا على الدوام، على تطوير طريقته في الأداء التمثيلي، تلك الطريقة التي كانت تبدو بطيئة الإيقاع والحركة، هادئة أكثر مما يتطلب الزمن الدرامي، لكنها في أعماقها كانت تخفي قدرة شاعرية فذة على تغليف تراجيديا الحياة ببريق شعري أخاذ، جعل موهبته التمثيلية أشبه بالموهبة التشيخوفية في القصة، فهي تكشف تلك المهارة المعقدة في الشغل على الدور، وهي تتوارى خلف قناع البساطة والبطء التراجيدي، والقلق الذي يشي بنبل مخزون الداخل.

لقد ترك يوسف حنا بصمة خاصة في الدراما التلفزيونية السورية، خلال ثلاثة عقود من الزمن، فقد أغنى الشاشة الصغيرة، بشخصيات متنوعة، مثقفة ومأزومة حيناً، معاصرة أو شعبية حيناً آخر، وتقلب بين أطياف الخير المشبع والمبرّر إنسانياً، وبعض ألوان الشر في حالات نادرة، لكنه في كل الأحوال، كان يرسم لشخصياته حياة أخرى، موشاة بالتفاصيل الملهمة التي تنهل من ثراء مخزونه الداخلي... حياة تجعل منها شخصيات مكثفة على الشاشة، ومؤثرة في الوجدان.

وقد تحول يوسف حنا في السنوات الأخيرة إلى عميد أسرة فنية، فشقيقته (أمل حنا) هي كاتبة ومخرجة في التلفزيون السوري، وقد سبق أن أخرجت للتلفزيون السوري في الثمانينيات أعمالا عدة كـ (الحادث)، ورباعية (أحزان عادية)، أما ابنة عمه (ريم حنا)، فقد تقلبت بين الصحافة الثقافية، والتمثيل، وتقديم البرامج التلفزيونية، لتكتشف موهبتها ككاتبة في مسلسل (أحلام مؤجلة) الذي شارك فيه يوسف حنا كضيف شرف، ثم تابعت مسيرتها كواحدة من كاتبات الدراما التلفزيونية بعد رحيله، وتخرج شقيقها (رامي) من المعهد العالي للفنون المسرحية في تسعينيات القرن العشرين، ليبرز كممثل في العديد من الأعمال، قبل أن يتصدى لأول محاولة إخراجية في مسلسل (عنترة) عام 2007، ثم (زهرة النرجس) عام 2008 ولعل هؤلاء وعشرات من أصدقائه، والملايين من جمهور الدراما السورية، مازالوا يذكرون اسم يوسف حنا مضيئاً، ومشرقاً بالإنجازات الفنية، والتواضع الإنساني والألق الروحي الثمين... هذا الألق الذي جعل يوم السابع والعشرين من الشهر العاشر من عام 1993، يوماً أسود في تاريخ الحركة الفنية السورية، حيث سار الآلاف، وهم متشحون بالسواد، والحزن والبكاء المر، وهم يودعون يوسف حنا إلى مثواه الأخير.

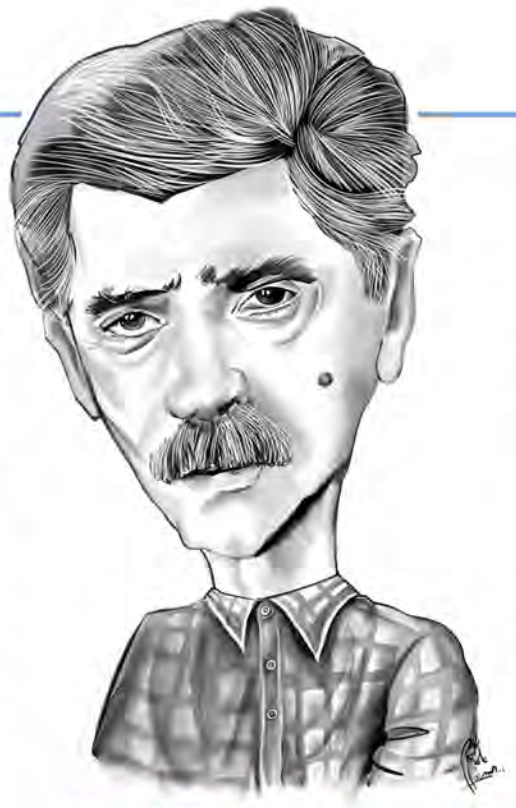

تجسيد يوسف حنا لدور المعارض (قدري أفندي) في مسلسل (الدغري) أكد قدرته على الأداء الكاريكاتوري الكوميدي البارع، وجرأته على خوض غمار أي تجربة فنية جديدة

هوامش:

(1) محمد منصور: (يوسف حنا: كل هذا الحب... كل هذا الرحيل) مجلة (فن) اللبنانية المحتجبة، العدد (199) 22 تشرين الثاني 1993

(2) يوسف حنا: (المسرح التجريبي ليس فراغاً) حوار: محمد منصور، مجلة (فن) اللبنانية المحتجبة، العدد (34) 24 أيلول 1990

ثقافة الفنان وتحرره أولا

بقلم: يوسف حنا

لا أريد أن أبحث في تفاصيل الحركة المسرحية، ولكني أود أن أشير إلى أرضية خاطئة – في رأيي- تلك التي تقف فوقها الحركة المسرحية عندنا. أما السؤال الذي يقود إلى المشكلة فهو كالتالي: لماذا ضعف الحماس للحركة المسرحية لدى الفنانين؟ ولماذا هو ضعيف أصلا لدى الكتاب؟!

إن المشاكل التي تطرحها كل حركة فنية هي غاية في التعقيد، وخاصة الحركة المسرحية، وثمة فرعان أساسيان تتجمع فيهما معظم مشاكل الحركة المسرحية:

1- وعي وتمثل وسيلة التعبير المسرحية من قبل الكتاب والفنانين. وهذا الوعي بحاجة ماسة إلى الثقافة بشكل عام، والثقافة المسرحية بشكل خاص. هذه الثقافة التي تشتمل على تاريخ المسرح والمذاهب المسرحية بأنواعها الكلاسيكسي والكوميدي والتراجيدي، ومن ثم بقية المذاهب التي ظهرت عبر التطور الاجتماعي. النقد المسرحي وتطوره، الفنون التشكيلية، فن التمثيل ومذاهبه المتعددة من مدرة الإلقاء القديمة مرورا بستانسلافسكي وما يرخولد وبريخت... إلخ. كلها أمور ضرورية تدرس في جميع معاهد الدراما، لكي يتفهم الفنانون ويتمثلوا وسيلة التعبير التي يتعاملون معها وبها. وبدونها أستطيع أن أؤكد استحالة إخراج عمل مسرحي متكامل من ناحية التأليف والإخراج والتمثيل.

2- مشكلة تتعلق بالعلاقة بين المسرح والجمهور، وهي علاقة في غاية التعقيد. فالفن المسرحي لا يمكن أن يكون فنا، إن لم تكن للعمل جماليته الخاصة، وفي هذه المرحلة التاريخية من مجتمعنا يتوضح الانفصال بين الجماهيرية التي يتذوقها الجمهور، والجمالية التي يطمح إليها الفنان. فالفنان يريد أن يقول شيئاً للجمهور، بل ويشعر أن معنى فنه يتجمع في رغبته الحقيقية في أن يقول كلمته الضرورية للجمهور، ولكنه يسقط في المشكلة عندما يطرح كلمته هذه عن طريق جمالياته هو، فلا بد إذن من البحث عن نقطة اللقاء بين الفنان والجمهور كي لا يفشل العمل جماهيريا من جهة، أو يقع في الزيف والتهريج من جهة ثانية.

إن إيجاد الحلول لهذه القضايا بحاجة إلى حوافز قوية تلهب الحماسة والطموح، وتتغلب على اليأس، ولكن أين هذه الحوافز؟

لكي لا نغرق في مثاليات فروسية القرن السابع عشر، نقول بوضوح إن الاعتماد على روح متخيلة للفنان، تتجمع فيها التضحية والجهاد في سبيل الفن، أمر في غاية السخف والابتذال. إذ يجب إيجاد الظروف المادية الملائمة، والحوافز المادية والمعنوية، ومن ثم الضوابط كي تبدأ الحركة الفنية مسيرتها إلى الأمام.

أما الوضع الراهن للحركة الفنية في القطر، والذي أستطيع أن أصنفه بأنه وضع لاهث في سبيل اللقمة، فهو لن يؤدي إلا إلى سقوط الفن والفنان، وإذا لم يتم تدارك الأمر وبسرعة، فإن حركتنا المسرحية ستظل أسيرة لاحتضار طويل.

مجلة (الموقف الأدبي) أيار/ مايو 1972

تصويب: معلومات ويكبيديا الخاطئة

تنشرموسوعة (ويكبيديا) الشهيرة جملة من المعلومات الخاطئة عن يوسف حنا، أولها ما يتعلق بتاريخ ميلاده، إذ تشير (ويكبيديا) إلى أنه من مواليد عكا عام 1941، والصحيح هو 1940 كما تجعل تاريخ وفاته في الأول من ديسمبر عام 1993، والصحيح أنه رحل بتاريخ السابع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 1993 عن (53) سنة لا (52)، وكان رحيله بعد أسبوع واحد من وفاة نهاد قلعي (العربي القديم)

"أول هزائمنا أننا ارتضينا، في اللهفة العمياء لحرق المراحل، أن نسلم مصائرنا للجزمات العسكرية، التي تركت ثكناتها للرياح، ونزلت قصور الحكم تعلم الناس التخطيط والوطنية والسياسة وحتى العلم أيضا."

د. شاكر مصطفى 1921-1997

رئيس الجمهورية هاشم بك الأتاسي، ورئيس الوزراء ناظم القدسي، يطوفان مع سفير المملكة العربية السعودية بدمشق عبد العزيز بن زيد في الجناح السعودي بمعرض دمشق الدولي في دورته الأولى 1954

فخامة الرئيس الاتاسي يقول

أرباح الخزينة السورية جراء الانفصال الجمركي بين سورية ولبنان سبعة ملايين ليرة سورية

مجلة [الدنيا] الخميس 27 تشرين الاول/ أكتوبر 1950

أدلى فخامة رئيس الجمهورية السيد هاشم الأتاسي إلى مندوب الزميلة المصرية (الأساس) بحديث قال فيه:

أستطيع أن أقول أن سورية منذ نشأتها لم توفق إلى حالة اقتصادية حسنة، كما هي الآن، فأصبح السوري يعتبر أن من واجبه أن يحتفظ باقتصاديات بلاده ولا يفرط فيها. ودليل ذلك أن أرباح الخزينة السورية، كانت من جراء الانفصال الجمركي بين سورية ولبنان والسياسة الاقتصادية سبعة ملايين ليرة سورية. ثم استطرد فخامته قائلا:

أما علاقتنا مع لبنان، فهي علاقة يجب أن تقوم على أسس فنية صالحة، وهذا ما تسعى إليه الحكومة السورية.

ثم تحدث فخامته عن مصر فقال:

إن السوريين ينظرون إلى مصر، نظرهم إلى الدولة الصديقة المحترمة؛ فمصر التي تتزعم العالم العربي، كانت دوما تستهدف صالح العرب، ولا ننسى الموقف المشرف الذي وقفته إبان العدوان الفرنسي، فاستطاعت بموقفها الصلب أن تحول دون مجزرة لا يعرف مداها أحد. ثم نوه فخامته بالعلاقات الاقتصادية المتينة بين مصر وسورية، التي عززتها المعاهدة التجارية الأخيرة.

ثم تحدث فخامته عن قبول الجامعة العربية كهيئة إقليمية في هيئة الأمم وقال: إن هذا مما يقوي مركز الجامعة دوليا، ولكن يجب علينا نحن أن نساعد الجامعة على تقويتها محلياً، فننسى خلافاتنا ونكون جهة موحدة ضد الأخطار.

بسبب وفرة الفائض

بيع الحبوب السورية إلى بلجيكا

جريدة [الشباب] الجمعة 18 حزيران/ يونيو 1948

على إثر عرض سوريا الفائض من حبوبها، والبالغ قدره 50 - 60 ألف طن للبيع، فقد تلقت من بروكسل في بلجيكا، أن الحكومة البلجيكية على استعداد لشراء كميات كبيرة من الحبوب السورية، على أن تدفع ثمنها بالفرنك البلجيكي أو الدولار. وطلبت إرسال نماذج عن الحبوب لفحصها في مخابرها، وقد أحيل الطلب إلى وزارة الاقتصاد الوطني لدراسته، بمدة أقصاها أسبوع.

المجتمع الشامي

مامن بلد في عالمنا هذا، قديمه وحديثه، أتيح له أن يعاصر طفولة الانسانية، ويشهد ولادة التاريخ، كما أتيح لديار الشام التي كان لموقعها الطبيعي اكبر الاثر في جعلها قبلة الانظار، ومحجة الفاتحين. فهي الحلقة الذهبية التي تقرع باب الشرق كله فينفتح لك رحباً فسيحاً بفيض بالخصب والنماء، ويندى بالبركة والعطاء. فكم من قوافل وجحافل قطعتها ضاربة بين شمال العالم وجنوبه، متنقلة بين بره المعروف وبحره المألوف، فلا غرو اذا حطت على أديم هذه البلاد سير الفتح الاولى، آشوريها وكلدانيها وفينيقيها وارتسمت في تربتها حضارات العالم الكبرى، اليونانية والرومانية والفارسية.

ولكن الله لم يقيض لحضارة من الحضارات المعروفة ان تستقر في تربة الشام وتمتزج بتاريخها كما امتزجت الحضارة العربية التي ثبت أركانها الفتح الاسلامي نهائياً في هذه الديار، وامتاز تاريخ الفتح العربي الطويل فيها باستقرار الأوضاع واستمرار الصفات الاصلية للحياة البشرية. فتأتى بذلك للحضارة العربية في الشام أن تلائم تربة صالحة تبلور فيها وتتفتح وتستقر..»

من كتاب « المجتمع الشامي » للأستاذ فؤاد العادل - أصدرته وزارة الثقافة والارشاد القومي، وتضمن دراسة المجتمع الدمشقي المحلي كنموذج للمجتمع الشامي، بعاداته وتقاليده وحرفه وصناعاته.. ووسائل النهوض به وتطويره.

مجلة (المعرفة) السورية العدد الثاني - نيسان/ أبريل 1962

فاصلة

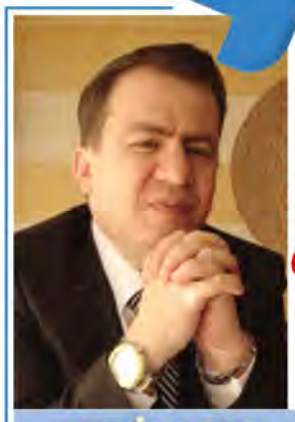

حين مشى دريد في جنازة نهاد

محمد منصور

حتى الخروج في جنازات من نحب بات ترفاً، بعد أن تشرد السوريون في أصقاع الأرض، وباتت المشاركة في تشييع أصدقائهم إلى مثواهم الأخير أمنية، يحول بينها ما يحول!

كثيرون من أهلي وأقاربي، ومن أصدقائي الكتاب والفنانين والمخرجين توفوا في دمشق أو غيرها من مدن المنافي واللجوء ولم أتمكن من السير في جنازاتهم. وربما صدفة التواجد المكاني وحدها، مكنتني من المشاركة في جنازة المخرج نبيل المالح عام 2016 في دبي، حين شيعناه مع ثلة من السوريين الغرباء إلى مثواه الأخير في مقبرة القوز بدبي، وعدنا محملين بحسرة التراب الدمشقي الدافئ، موقنين أن نبيل المالح كان يتمناه، كما تمناه نزار قباني، فأوصى ألا يدفن إلا في دمشق... وفي دمشق سرت في مثل هذا الشهر قبل ثلاثين عاماً، في جنازتي اثنين من الفنانين الكبار الذين أحببتهم وتابعت فنهم لعقود. نهاد قلعي ويوسف حنا.

رحل نهاد قلعي في التاسع عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام 1993، وقد خرجت دمشق كلها في جنازته لتودعه في رحلته الأخيرة من بيته في جادة الشطا بحي المهاجرين، إلى مقبرة الدحداح بشارع بغداد.

ورحل يوسف حنا في السابع والعشرين من الشهر نفسه، فخرج الكثير من أصدقائه ومحبيه يودعونه ويبكون الرجل الخمسيني الوقور بحرقة، وامتد الموكب المهيب من بيته في أتوستراد المزة، إلى مقبرة الروم الأرثوذوكس في القصاع.

في جامع (لالا باشا) المقابل لمبنى نقابة الفنانين في شارع بغداد، حيث كانت الجموع تقيم الصلاة على روح نهاد قلعي، كان دريد لحام يقف في الخارج مع ثلة من الفنانين يرمق المشهد بعينين دامعتين، وكنت - كما غيري - شغوفا بمراقبته بصمت. ربما كان دريد يستحضر شريط ذكرياتهما المشترك في لحظة الفراق الحزين... وربما كان يراجع حسابات السنوات الأخيرة في ميزان الصداقة والوفاء، كما كان يردد بعض من اعتاد أن يرى في علاقة دريد بنهاد وجهاً من وجوه الظلم التاريخي لرجل أعطى وآخر أخذ.. وعرف كيف يأخذ.

أحفظ من أسرة نهاد قلعي الكثير من القصص عن جحود دريد بحق أبيهم وتنكره له في مرضه كما حدثوني مراراً، وأتذكر ما رووه لي، عن الماغوط حين دب الخلاف بينه وبين دريد إثر عرض مسرحية (شقائق النعمان) عام 1987، وكيف اتصل بالأستاذ نهاد قائلا: "منشان اللي خلقك كيف كنت متحمله كل هالسنين" فرد نهاد: "طول بالك لسه ما شفت شي"!

لكن التاريخ يبدو أكثر تريثا و"طولة بال" في إصدار حكمه على الأشخاص والعلاقات مما قد يتحلى به البشر، وما محاولة (العربي القديم) في هذا العدد لإلقاء نظرة نقدية على الثنائي دريد ونهاد، وطبيعة العلاقة بينهما كجزء من تاريخ الفن بوجوهه المتعددة، سوى جهد برسم التاريخ الذي يقول كلمته باستمرار، بألسنة الناس حيناً، ومحبتهم التي منحوها لهذا وحجبوها عن ذاك حينا آخر.